تاريخ الشيخ

ظاهر العمر الزيداني

حاكم عكا وبلاد صفد

تأليف

المرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوي

عني بنشره وتعليق حواشيه

الخوري قسطنطين الباشا المخلصي

شركة نوابغ الفكر

القاهرة

ت/ ٢٥٩٣٦٤٠٢ ، فاكس: ٢٧٨٦٥٥٥٣

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠

شركة نوابغ الفكر

هاتف: ٢٥٩٣٦٤٠٢ فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧

E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الصباغ، مخائيل بن نقولا بن إبراهيم ، ١٧٧٥ - ١٨١٦

تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني: حاكم عكا وبلاد صفد / تأليف المرحوم مخائيل نقولا الصباغ العكاوي

- ط١ - القاهرة: شركة نوابغ الفكر ، ٢٠١٠

١٥٨ ص : ٢٤ سم

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٣٠٥-٨٦-١

١- فلسطين - تاريخ - العصر الإسلامي ٦٤٠ - ١٩١٤

١- الزيداني، ظاهر العمر - ١٦٨٩ - ١٧٧٥

أ- العنوان

ديوي: ٩٥٣.٠٧٣

رقم الإيداع: ١٧٥٨٦ / ٢٠١٠

مقدمة

لا ريب بأن الشيخ ظاهر العمر الزيداني رجل عصامي يصح أن يقال عنه إنه كان فريد عصره ومن نوابغ رجال الشرق وكفاه فخرًا أنه بعقله ساد قومه وبعدله وحسن سياسته وجسارته وشدة بأسه أنشأ دولة ذات شأن في قلب دولة بني عثمان وهي في أوج عزها. فلا جرم أن تاريخه كله عبر وأعمال تستحق أن تخلد في سجل التاريخ الصادق فهو تاريخ نهضة وحرية واستقلال وتجديد عمران عكا وحيفا والناصرة وجميع البلاد التي استولى عليها أو حالف أصحابها فإنه من برية عرابة البطوف (منشأه الأول) أخذت سطوته تجاري حكمه بالامتداد إلى طبرية والناصرة وصفد وبلادها إلى عكا وحيفا وجميع بلاد حارثة إلى جبل نابلس وجميع بلاد فلسطين، ثم إلى بلاد بشارة وجبل عامل، إلى صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان، إلى جبل عجلون ومرج عيون. حتى غدت تركيا تخاف بأسه وتهاب سطوته. وبلغ أمره كبار ملوك أوربا في ذلك العهد، وقامت حينئذ تخطب وده ملكة روسيا كاترينا الثانية نادرة الملوك والنساء مع يوسف الثاني قيصر النمسا وجرمانيا. ولولا عيبه من لوده لكان فاز بالاستقلال المرغوب وأورثه لمن يصلح له من أولاده وما كانت هذه البلاد المنكودة الحظ وقعت بمخالب الجزَّار الذي كان لا محالة شر الحكام.

ومن المعلوم أنه لم يكن أحد يتجرأ في عهد تركيا أن ينشر له تاريخًا كاملًا صادقًا إذ كان يحسب عدوًا لها ومجاهرًا بالعداء لرجالها. لكن إذ قد تقلص اليوم عن هذه البلاد ظل تركيا المخوف بحمد الله تعالى وأطلقت الحرية لأصحاب الأقلام وأخذوا ينشرون تاريخ الوطن ورجاله الأعلام بدون قيد ولا خوف.

وإذ كنت من المولعين بالتاريخ ومن المشتغلين بالبحث عن آثاره أسعدني الحظ

بأن وقع لي في بعض المخطوطات القديمة تواريخ أو سير مختلفة لهذا الرجل الفريد واجتمع عندي بعض المراسلات التي دارت على ما جرى له حينئذ، وأصحابها من عكا ومن ذوي الشأن فيها. فقد شاقني ما جاء فيها من التفصيل والتعليل ولهذه الحوادث مع بعض الاختلاف بالرواية فيها لاختلاف مشارب أصحابها ومقاصدهم في تحريرها. ولها فضل وميزة على ما في كتب التاريخ المطبوعة التي أتت عرضًا وبالإيجاز على ذكر شيء من تاريخ هذه الرجل الفذ فكان تاريخه بالطبع فيها ناقصًا وقاصرًا على القسم الأخير من حياته.

وربما قصد بعضهم تفكيه المطالع بحكاية ما بلغ إليه هذا الشيخ من الحكم الواسع والعز الباذخ وما ولي ذلك من الانقلاب السريع والبلاء العظيم.

ولعلهم قصدوا بهذا الموعظة والعبرة التي لا يخلو منه التاريخ. وقد رام بعضهم التزلف بذلك إلى الحكام والتقرب إلى الجزار (خلفه في حكم عكا) الذي كان بلا شك أشد الحكام هولًا وجورًا فلا غرو إذا كان الأقلام تجري حينئذ مقيدة بسلاسل الخوف والرهبة من جوره وشره. وقد طالما رأيناها تجري كذلك في عهد الأتراك أو بالتقليد والاتباع. ولهذا كان التاريخ عندنا لا يخرج عن النقل بدون نظر ولا نقد.

وأول هذه التواريخ التي وقفنا عليها بهذا الشأن وأوسعها تفصيلًا وأجملها تعليلًا وأفضلها ترتيبا وأقربها للصدق والصواب وأولاها بالنشر وأجدرها بالطبع هو التاريخ الذي ألفه الكاتب البارع المرحوم مخائيل نقولا الصباغ العكاوي. وقد أخذ مفصل حوادثه عن أبيه وأعمامه وأستاذته الذين كانوا كلهم من المقربين إلى هذا الشيخ، وقد وقفوا على حقيقة أمره وعرفوا جلية خبره. وكان لديه سندات تاريخية مهمة ذكرها بنصها أو أشار إليها.

وقد كتبه في باريس موطن الحرية مع تاريخ جده إبراهيم الصباغ كاتب الشيخ المذكور وزيره ليكون التاريخان كالفرقدين لا يفترقان. ومن ثم عوّلنا بحوله تعالى على نشر هذا التاريخ. بعد معارضته بما في أيدينا من التواريخ مخطوطة ومطبوعة كما سنذكرها وقد اعتمدنا في هذا على النسخة المحفوظة في المكتبة الشرقية التابعة لكلية الآباء اليسوعيين الأفاضل في بيروت، (التي أصبحت بهمة حضرة الأب لويس شيخو من أغنى مكاتب الشرق بمخطوطاتها ومطبوعاتها باللغات المختلفة). وقد أبقينا النص على أصله إلا ما اقتضاه الأمر لإصلاح بعض أغلاط سهو في الأعراب التي لا يخلو منها كتاب قديم، وكذلك أضفنا ما وضعناه عنوانًا لفصوله، وجعلناه بين هلالين شرحًا وتفسيرًا، وما علقناه عليه من الحواشي التاريخية المقولة عن ثقات المؤرخين لزيادة الإيضاح وإزالة كل إشكال، ليكون هذا التاريخ موضع ثقة القارئ النجيب كما تقتضيه شروط نشر التاريخ القديم.

التاريخ الثاني منها بعد الأول بتفصيل وقائعه وأهميته هو «كتاب الروض الزاهر في تاريخ ظاهر» تأليف المرحوم عبود الصباغ العكاوي عم مخائيل المذكور. وعندنا نسخة منه منقولة بالتصوير الشمسي عن الأصل المحفوظ في مكتبة باريس بعدد ٤٦٢٠ من مخطوطاتها العربية في ثمانين صفحة بقطع صغير بخط يد المؤلف. وعبارته سهلة كسهولة مجرى الحوادث التي وصفها في كتباه بسياقها الطبيعي بدون تكلف ولا تصنع، حتى إنه لا يبالي بقواعد الصرف والنحو والإعراب. وقد كتبه وهو في دمياط وقد أثرت لهجة مصر في كلامه حتى بدت على قلمه فيه. ولعله كتبه باقتراح ابن أخيه مخائيل المذكور وأرسله له إلى باريس ليستعين به على تأليف تاريخه السابق ذكره. إلا أننا من مطالعة التأليفين نرى أن مخائيل لم ينقل شيئا من تاريخ عمه ولا أشار إليه بكلمة في تاريخه، وإن اتفقا بذكر بعض الحوادث. وهذا يحملنا على القول بأن مخائيل مات قبل وصول كتاب عمه إليه أو بعد ذلك بقليل.

الثالث من هذه التواريخ هو خبرية حضور أبي الذهب إلى الشام أولا من قبل علي بك وحضوره إليها ثانيا إذ فتح غزة ويافا ومات على أبواب عكا. ثم حضور حسن باشا وقتل ظاهر وأخذ أولاده وأمواله وأخذ إبراهيم الصباغ وأمواله وقتله له غدرًا في إسلامبول بعد أن خرج من السجن مبرزًا. وهذه الخبرية طالعناها في مجموعة تاريخية بنسخة في مكتبة دير المخلص ونسخة ثانية في مكتبة باريس وفي نسخ غيرنا. وقد كتبها جامعها في نصف القرن التاسع عشر ولم يذكر اسمه فيها لتكون مفكرة لطيفة له ولسواه من محبي التاريخ. وهو من طائفة الروم الكاثوليك ومن دمشق، كما تدل على ذلك بعض فصول هذه المجموعة.

الرابع منها «قصة ظاهر العمر حاكم عكا» نقلناها في ١٦ صفحة عن نسخة في مكتبة حضرة صديقنا الأستاذ الفاضل عيسى اسكندر المعلوف، أحد أعضاء المجمع العلمي العربي، منقولة عن نسخة في القدس الشريف. وهي غفل من اسم كاتبها. وقد صدّرها مؤلفها بجدول وزراء الشام من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١٢٢٣ هجرية. وقد ضبط سنة توليهم وأهم الحوادث بالتاريخ الهجري. ويغلب على قلمه كلام العامة الدارج بلهجة أهل مصر. وقد أشبع الكلام تفصيلًا عن أعمال حسن باشا في عكا وقد نقل صورة جوابه وإخطاره الأخير إلى ظاهر قبل ضرب عكا. ومن ثم يبان لنا أن المؤلف مسلم من فلسطين أو من البلدان المجاورة لمصر والتابعة لإيالة الشام.

الخامس منها «قصة الشيخ ظاهر العمر» نقلناها كذلك في ست صفحات عن نسخة في مكتبة حضرة الأستاذ المشار إليه منقولة عن نسخة في مكتبة يعقوب أفندي فرج ترجمان قنصل روسيا في القدس سابقًا. وهي غفل أيضا من اسم مؤلفها. ونرى أن صاحبها قد وقف على تاريخ جودت باشا أو تاريخ نوفل نوفل الطرابلسي أو كتاب أسفار فولنه (volney) الفرنسي ولخّص ذلك تلخيصا بكل إيجاز ولم يزد عليه

شيئًا.

ثم ما عدا المراسلات التي سننشرها بنصها في آخر هذا الكتاب راجعنا أيضا كتب التاريخ التي تكلم أصحابها عن الشيخ ظاهر وكان بعضهم معاصرًا له أو قريب العهد إليه.

أولا: تاريخ القس روفائل كرامة الراهب الشويري الذي يبتدي من سنة ١٧٤٥ وينتهي سنة ١٨٠١.

ثانيا: تاريخ القس قسطنطين الطرابلسي الراهب الشويري الذي يبتدي سنة ١٧٢٩ وينتهي سنة ١٧٧٣.

ثالثًا: كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف للقس حنانيا المنير الزوقي أحد رهبان الدير المشار إليه.

رابعا: تاريخ الأمير حيدر شهاب المخطوط وهو يختلف عن المطبوع في مصر سنة ١٩٠٠.

خامسًا: الجواب على اقتراح الأحباب للملعم مخائيل مشاقه المخطوط وهو يختلف كثيرًا عن المطبوع في مصر سنة ١٩٠٨ باسم مشهد العيان وقد حذف منه اللذان نشراه أمورًا كثيرة ذات شأن.

سادسًا: تاريخ نوفل نوفل الطرابلسي الذي نشر قسمًا منه في مجلة الكلية أسد أفندي رستم وقد اعتمد نوفل فيما كتبه عن الشيخ ظاهر على تاريخ الأمير حيدر وتاريخ جودت باشا التركي.

سابعًا: تاريخ الخوري مخائيل بريك الدمشقي وهو يبتدي من سنة ١٧٢٠ وينتهي سنة ١٧٨٠.

وكذلك راجعنا من كتب التاريخ المطبوعة التي خصص أصحابها الكلام عن الشيخ المذكور وخصومه مع شيء من التفصيل تاريخ الجبرتي المصري والمرادي الشامي وفُولته الفرنسي[١] ومجموعة المرحوم الاب إنطوان رباط اليسوعي[٢] وما نشره عنه أصحاب دائرة المعارف العربية ويكاد يكون موجز فولته وما حرره في مجلة المقتطف جرجي أفندي يني نقلًا عن فولته. والأمير حيدر وجودت باشا، مع شيء من المقابلة والنقد، وما كتبه عنه المرحوم نعمان القساطلي في مجلة الجنان سنة ١٨٧٥ إلى ما ذكره القس أسعد منصور في تاريخ الناصرة المطبوع بمصر سنة ١٩٢٤ وغير ذلك مما سنذكره في محله والله ولي التوفيق.

تنبيه: بعد أن نشرنا قسمًا من هذا التاريخ الشائق تباعًا في المسرة حال دون ذلك ما جرى علينا من الثوار في دير مار سركيس في معلولا وما فعلوه من تمزيق كتبنا وأوراقنا وسلب كل ما وصلت إليه أيديهم وقد نال هذا الكتاب ما نال سواه من مخطوطاتنا فإنهم مزقوه كل ممزق واقتضى لإعادة أوراقه كما كانت كلفة ووقت طويل. وإذ طلبت منا إدارة مجلة المسرة أن ننشره لوحده ونجعله هدية للمشتركين في هذه السنة فعلنا حبًا وكرامة.

وإذ وجدنا الأصل المخطوط مشوشًا ومضطربًا الكلام فيه في بعض المواضع لما وقع في الأصل المنقول عنه من الخلل والتشويش في ترتيب صفحاته المتناثرة وربما سقط بعضها وفقد كان لا بدَّ لنا من إصلاح هذا الخلل ووضع كل شيء في المحل

---

(١) Voyage en Egypte et en Syrie par C. Volney. 2 Vol.

(٢) Documents inédits pour servir à l'histoire du christianisme en Orient

الذي يقتضيه فيه بعد معارضته على ما في يومنا من التواريخ المذكورة هنا والله ولي التوفيق.

توطئة

لا بد لنا في مقدمة هذا التاريخ من كلام إجمالي في بيان أحوال الحكومة في إيالة صيدا في الزمان الذي وقعت فيه حوادثه أي منذ مائة وخمسين سنة تقريبًا، وقد تحولت تلك الأحوال وتغيرت فيها الأحكام والحكَّام حتى صار ما كان منها مألوفا غير معروف اليوم، وقد يتعذر على كثيرين فهم ما جاء في هذا التاريخ من العبارات والمفردات التي كانت جارية حينئذ على ألسنة القوم وأقلام الكتَّاب ومسجلة بحكم العادة والعرف العام والخاص. وهي غير منزلة في كتاب ولا قاموس في لغتنا العربية وقد أفسد معناها بعض المتطفلين على كتابة التاريخ، وهم يظنون أن الوالي كان حينئذٍ بمقام الوالي في أيام السلطان عبد الحميد وأيام السلطان محمد رشاد.

وأن الولاية كالإيالة أو مشتقة منها وإن عسكر الدولة المنظم على نظام أوربا الجديد نظير عسكر الدالاتية أي عسكر الدولة القديم أصحاب الوجاقات لا فرق في ذلك إلا بالأشخاص. ومن ثم نقول:

قبل تشكيل الولايات في تركيا بإعلان التنظيمات والدستور كان يطلق اسم الوالي على كل من يلي أمر الحكومة في البلد بالإجمال ولو كانت البلد قرية أو كما يقول جودت باشا كان بمقام مأمور الضابطة في البلد.

وصاحب الإيالة يدعى وزيرًا ونائب السلطان وسنجقًا أي أمير السنجق وصاحبه. لأن تشكيلات تركيا كانت إلى ذلك العهد عسكرية بالإجمال. وكان بيده السلطة العسكرية والملكية أو الإدارية والمالية والعدلية أو الجزائية لا شريك له فيها إلا من أحب أن يجعله تحت يده من الاتباع

والحكام الصغار. ومن ثم كان أمر حياة الأفراد وموتهم متعلقًا على رضاه ويقدر أن يسوق الجند لقتال من تمرد عليه وخراب ديارهم ومحو آثارهم من الأيالة. والغاية كان الوزير في الأيالة حاكمًا عامًّا من قبل السلطان مستقلًّا فيها على الطريقة المعروفة اليوم عند أرباب السياسة بالطريقة اللامركزية ولهذا يقال له نائب السلطان وولي النعم.

وكان الوزير المذكور يلتزم الأيالة من الباب العالي أي الوزير الأعظم بمال معلوم مع هدية سنية من المال على وجه ثابت أو كما كانوا يقولون على سبيل الملكانة. وكان الوزراء يلتزمون الأيالة من قبل لمدة سنة فقط. وقد يتجدد هذا الالتزام لصاحبه إذا اقتضى ذلك حسن حاله. ويقال لهذا الالتزام مقطع. لكن ألغاه السلطان مراد الثالث لما فيه من دواعي الإهمال والخراب.

وكانت أيالة صيدا حينئذ تمتد من جسر نهر المعاملتين في لبنان إلى حيفا لأن حيفا وبلاد حارثة ويافا وجبل نابلس وغزة وفلسطين كانت تابعة أيلة الشام الواسعة وكانت مع هذا يافا ونابلس من الأملاك الهمايونية الخاصة ببني عثمان ومن ثم كانت (ديرة) أيلة صيدا ضيقة ضيق سيف البحر لا تتجاوز مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد لأن أكثر البلاد الداخلة بحدودها ولا سيما العالية في الجبال كان الغالب فيها الحكم الإقطاعي حيث لم يكن للوزير يدٌ إلا ما ندر.

والحكم الإقطاعي له شيء من الاستقلال إذا كان لكل مقاطعة من البلاد شيخ من البيوت القديمة ذات الصولة وله كلمة نافذة في قومه، وهم يشدون أزره ولا يخرجون في شيء عن أمره –وقد يكون صاحب المقاطعة أميرًا تابعًا لأمير أعظم منه– وهو يلتزم مقاطعته التي فيها أملاكه وقومه من الوزير رأسًا أو على يد الأمير على سبيل الملكانة بمال مقطوع أي بمال معين على وجه قطعي لا يقبل الزيادة يقال له مال

الميري يدفعه له مع هدية مالية يقال لها عوائد. وأصحاب المقاطعات لا يدعون الباشا يتداخل بأمر بلادهم وإلا قاموا بوجهه وتمردوا عليه في حصونهم وجبالهم واتحاد كلمتهم وكان أصحاب المقاطعات في لبنان من أمراء ومشايخ يرجعون في أمرهم إلى الأمير الكبير من بني شهاب وهو الحاكم العام وهم مناصب البلاد ومنهم يتألف مجلس الأمير وهم عمدته برجالهم من الدروز والنصارى.

وكان كذلك أصحاب مقاطعات جبل عامل من مشايخ المتاولة فكان بنو صعب في مقاطعة الثقيف وبنو منكر في الشومر والتفاح وبنو علي الصغير في بلاد بشارة. وكانت الزعامة في هذا البيت. وكان كبيرهم الذي يرجعون بأمورهم إليه الشيخ ناصيف النصار ويدعى شيخ مشايخ التاولة وفي معرض التبجيل يقال له أمير. ولما كان التاولة من أهل الشيعة كان الأتراك (وهم من أهل السنة) يكروهونهم لدينهم وهم يكرهون الأتراك لذلك. وكذلك الدروز في لبنان.

وأما أصحاب مقاطعات بلاد صفد فكانوا لذلك أقل نفورًا منهم وسيأتي عليهم كلام المؤلف مفصلًا في محله.

وكل أصاحب هذه المقاطعات لهم في جبالهم حصون منيعة ويقيمون في قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين ولهم رجال أشداء من عشائرهم لا يعرفون الجبانة في القتال ولا الخيانة لزعيمهم ولا مخالفته في أمر وبهذا كان لهم فضل ومزية فخر على عسكر الدولة.

وكان عسكر الأيالة الذي يكون تحت أمر الوزير خمسمائة من الخيالة أو الفرسان وخمسمائة من المشاة أو الرجالة ويسوغ له أن يزيده لأجل زيادة هيبة الوزارة إلا أنه تخفيفًا لثقلة معاشهم عليه كان يكتفي بنصف هذا العدد.

ولم تكن أيلة صيدا فيما نرى نظير أيالة الشام وباقي آيالات الدولة فيها وجاقات من أهل البلاد من أصحاب الزعامات والتيمار والانكشارية والقبوقولي وسواهم لقلة شأن هذه الآيالة ولعدم ثقة الوزير بالأهالي ومن ثم كان.

عسكر الإيالة أخلاطًا من الأرناووط والأكراد والتركمان ومن أهل بغداد أو العراق وهم الخيالة. وكان المشاة غالبًا من المغاربة من أهل تونس والجزائر وطرابلس ومصر والسودان وفيهم العبيد السود والمماليك البيض فكانوا يتألفون لذلك طوائف مختلفة على اختلاف لغاتهم وبلادهم ويجتمعون إلى وجاق أو مطبخ خاص يتناولون فيه قوتهم وإليه تنسب أفرادهم وتوسم على زنودهم علامته أو نيشانه. وكان لكل وجاق رئيس أو زعيم من أفراده يتكلم بلسانهم وله الكلمة النافذة فيهم وبيده زمام أمرهم لدى الوزير وهو يوزع عليهم الجامكية التي هي أعطيات الوزير يقال له أغا الوجاق وبلوكباشي وشاويش.

ومن حيث إنهم غرباء ومأجورون عند الوزير فلم يكن يهمهم أمر البلاد ولا الأهالي. وإذ لم يكونوا على شيء. من حسن النظام العسكري والتربية ولم يكونوا من العيال الشريفة بل كانوا غالبا من الرعاع وأهل العصابات والشقاوة فكان دأبهم الثقلة على الأهالي في ديارهم والتعدي عليهم وهم يحسبون ذلك غنيمة باردة بدون حرب ولا قتال. وقد أحلّها لهم هذا سكوت الوزير ورضاه الصريح والحاجة والعادة ولهذا كان عسكر الدولة يحسب البلاء الأعظم على أصحاب القرى والمزارع الذين لم يكن لهم قوة أن يدفعوا تعديهم عنهم. وكانت ثقلتهم أشد على النصارى حتى في المدن فكانوا يسومونهم من أصناف المغارم والسخرة والضرب والشتم ما لا يسعنا شرحه هنا وهم يفعلون ذلك باسم الدولة العلية أو باسم الوزير نائب السلطان ولي النعم. ولهذا كان عسكر الدولة أو الدالاتية مكروهًا ومحتقرًا حتى كان

يضرب المثل بسفالتهم مما لا يزال دارجًا إلى اليوم بقولهم فلان نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله أي لا ذمة له ولا عهد ولا بذكر الخبز ولا الملح بفيه...

ومع هذا كان دخل وزير الإيالة من أصناف الضرائب والمغارم شيئًا كثيرًا:

أولًا: مال التزام جبل لبنان وجبل عامل وبلاد صفد من المشياخ والأمراء.

ثانيًا: مال التزام الجمرك في المدن البحرية صيدا وصور وعكا على الوارد والصادر وأهم الصادرات حينئذ القطن والسمسم.

ثالثًا: مال الخراج على الأراضي وكان يؤخذ مقابل هذا ربع حاصلاتها.

رابعًا: مال الجزية ويسميه الأتراك مال الأعناق وكان يسميه العرب في صدر الإسلام مال الجوالي وهو يؤخذ من أهل الذمة من اليهود والنصارى.

خامسًا: مال الباج وهو رسم خفارة الطريق من الغرباء والتجار.

سادسًا: مال المغارم العمومية التي يتقاضاها من جميع أهل الإيالة والخصوصية التي يفرضها أو يأخذها من بعض الأفراد على سبيل الجزاء أو على سبيل الإعانة.

سابعًا: دخل بيت مال المسلمين وأهم ما فيه مخلفات من لا وريث له من أهل البلاد والجند والحجاج وأبناء السبيل.

ثامنًا: مال العوائد أو الهدايا من الاتباع المأمورين ومن الأغنياء والأمراء والمشايخ وقناصل الإفرنج وتجارهم الذين كانوا في الإيالة بصفة مستأمنين فإنه كان يتقاضى ذلك منهم كحق واجب عليهم ورفض دفعه أو قطع هذه العوائد صعب ويعد إهانة أو حط من كرامة الوزير.

وكان للوزير أتباع وحاشية كبيرة من المماليك والخدم والعبيد. وأولهم وأعظمهم شأنًا الكتخدا ويلفظونها كيخية وهو الوكيل أو المعاون والمساعد له في أمور الإيالة. وينوب عنه إذا غاب بل يأمر وينهي بحضوره. وهو غير الكتخدا أو الكيخية الذي يكون وكيله وعمدته في إسلامبول وينم إليه بالأخبار التي تهمه منها وقد جعله هناك عينًا له وجاسوسًا.

ومن كبار أتباع الوزير الصراف فإنه يحضره معه من أغنياء الأرمن أو اليهود البارعين بالحسابات وقد يكون هذا الصراف دفع سلفًا عن مولاه مال التزام الإيالة فيفوض إليه الوزير النظر بتحصيل وتوريد الأموال للخزينة.

ومن كبار أتباع الوزير كاتب الديوان التركي ويدعى رئيس الديوان يختاره الوزير غالبا من كتاب الأتراك البارعين بحسن الخط والإنشاء في التركي ويقلده الوزير تحرير الكتابات إلى الباب العالي وغيره من وزراء الدولة.

ومن رجال الإيالة اليازجي وهو كاتب العربي يختاره الوزير غالبًا ممن يحسن الخط والإنشاء في العربي لتحرير الأوامر والمراسلات باللغة العربية وكانت هذه الوظيفة في الغالب وراثية في بعض العيال من الروم من أهل البلاد وقد تمرنوا على ذلك تحت نظر والدهم أو أحد أقاربهم.

وأما المفتي والقضاة الأربعة لأصحاب المذاهب الأربعة أو الأئمة الأربعة في الإيالة فلم يكونوا من الأتراك وإنما كانوا من الإيالة أو من الأهالي.

ومن حكام الإيالة المتسلم وهو الحاكم من قبل الوزير في المدينة ذات الشأن وأصغر منه وأعم الوالي وأصغر منه الشوباصي ودونه الشاويش الذين يتولون الحكم من قبل الوزير أو المتسلم في القرية أو البلدة الصغيرة ولكل من هؤلاء الحكام

والأتباع عمَّال وكتَّاب وأتباع تحت أيديهم مما لا طائل بذكرهم مفصلا وبما تقدم كافية والله تعالى ولي التوفيق.

الزيادنة

الزيادنة عيلة كانت نازلة في بني أسد العرب النازلين في البراري التي حول معرّة النعمان بين الشام وحلب يرحلون مع بني أسد أينما رحلوا وينزلون حيث نزلوا. وكانت تدّعي هذه العيلة أنهم أشراف من بني زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب من فاطمة -وبهذا يرجعون إلى عرب الحجاز كما قال البعض- وهم بين أعمام وأخوة وأولاد أعمام وأولاد أخوة مقدار خمسين نفرًا. وكان كبيرهم الذي يرجعون بالأمور إليه عليّ. ومات علي وترك مكانه عمر ابنه فتزوج عمر امرأة من عرب السردية فولدت له ثلاثة أولاد عليّ والثاني سعد والثالث ظاهر[1].

(١) هذا أوجه ما قيل في الزيادنة وما ذكره عنهم البعض من المتأخرين بخلاف هذا إنما هو رجم بالغيب إذ لم يعرفوا ولم يشتهروا إلا بظاهر وأول من صار منهم شيخًا أبوه عمر سنة ١٦٩٨ على رواية الأمير حيدر بمخطوطه فان الأمير بشير شهاب الأول أقامه شيخًا على بلاد صفد؛ لأنه كان قيسيًّا نظيره ليغريه بالشيخ السابق من بيت البيتم لأنه كان يمنيًا.

وقال عبود الصباغ: كان في طبرية من معاملة بلاد صفد من إيالة صيدا رجل فلاح متقدمًا على بقية الفلاحين فأراد أن يلتزم طبرية من وزير صيدا عن يد أمير الدروز فقبل معه الوزير وأعطاه طبرية التزامًا بكفالة أمير جبل الدروز وصار كل سنة يدفع مال الميري عن يد أمير جبل الدروز ثم ولد له ثلاثة أولاد عمر وعلي وشحطة وبعد مدة مات أبوهم وقام عوضه ولده عمر الذي كان أكبر أخوته وصار يلتزم طبرية من وزير صيدا عن يد الأمير. وأما علي فبعد أن مات أبوه انتقل إلى الساحل وسكن الدامون والتزمها من وزير صيدا باسم أخيه عمر لأنه لم يكن يريد أن يكون له اسم عند الدولة وولد له ولد سماه محمدًا. وأما شحطة فإنه بقي عند أخيه عمر ثم ولد لعمر أربعة أولاد سعد ويوسف وصالح وظاهر وبنت اسمها شما تزوجاه ابن عمها محمد العلي وكانت أخت ظاهر لأمه ولما مات علي قام عوضه ابنه محمد ولما مات عمر ما رضي سعد ويوسف وصالح أن يخرجوا الالتزام باسمهم بل باسم أخيهم ظاهر لسبب وحدة حالهم وكلمتهم وصار الالتزام يخرج من وزير صيدا

وكان عمر يتردد كثيرا إلى الشام وحلب ببعض المتاجر حسب عوائد العرب فربح من ذلك أرباحا كثيرة اتسعت دنياه وكان ابناه سعد وعلي كبرا فصار يصحبهما معه في أسفاره ولما رأى بعض أجلاف بني أسد اتساع مال عمر وغناه حسدوه وتثاقلوا عليه فافتكر عمر وقال: لا خير في قوم يكون المرء منهم محسودًا ومن أجلافهم محتقرًا مخذولًا. وكان قد أتى الخليل من قبلُ بقصد الزيارة وتعرّف هناك ببعض الناس فقام وجهز حاله وشد رحاله بعد أن اجتمع بأهل بيته وعرض عليهم أن يرحلوا إلى الخليل ويقيموا هناك إلى أن يروا رأيهم فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعًا وشدوا رحالهم وسافروا ونزلوا عند قيسارية[1] فأقاموا قليلًا فما أعجبهم المكان لقبحه وخرابه فانتقلوا منه إلى نواحي الأردن في برية طبرية وتعرفوا بكبير قومها أو شيخهم فأعجبتهم فاستوطنوها ورأوا أراضيها خصبة فاستفحلوا بها واشتروا الغنم وأخصبت معهم وكان ذلك سنة ١٧٠١.

وكان ظاهر له من العمر حينئذٍ اثنتي عشرة سنة[2] فجعله أبوه عند أحد المشايخ العلماء اسمه عبد القادر الحفناوي ليعلمه قراءة كتاب الله وبعض الأدب والكتابة.

وكان عمر من الكرم والجود في الغاية فرتب في بيته منزلًا للضيوف فكان كل غريب يأتي من الشام أو سواها أو من مشايخ العربان من أية قبيلة يستقبله بالرحب

مال الميري والمذكور يدفعه للدولة وهكذا صار الاسم لظاهر عند الدولة والشيخة عند الفلاحين وكان عمره حينئذ أربعة عشر سنة. اهـ

(١) المراد بها قيسارية فلسطين القديمة وهي اليوم خراب على البحر ما بين حيفا ويافا.

(٢) ولد ظاهر على رواية المرادي سنة ١١٠٦ هجرية الموافقة سنة ١٦٩٤ مسيحية وعلى حساب فولنيه الفرنساوي ولد سنة ١٦٨٥ وعلى حساب عبود صباغ سنة ١٦٨١ وعلى حساب مخائيل في النص سنة ١٦٨٩ ولا غرابة في هذا الاختلاف إذ لم يكن لظاهر شأن حين مولده للاهتمام به وقيد تاريخ سنة ولادته

والسعة وينزله عنده ويذبح له الذبائح أن كان من أهل النعم ولذلك شاع صيته في تلك النواحي وأحبه أهل طبرية. لكن ما استقام طويلًا حتى مرض بالاستسقاء ومات.

وكان علي ابنه الكبير لا يتعاطى شيئًا مهمًا بل كان دائمًا في حاله ملازمًا منزله وما أقام كثيرًا بعد أبيه حتى مات[1].

وكان سع ابنه الثاني له من العمر حينئذ عشرون سنة فقام مكان أبيه، ما نقص شيئًا مما مشى عليه ابوه من الخير والكرم وضيافة الغرباء والتيقظ إلى سياسة بيته وتربية أخيه الصغير وأولاد بني عمه على تقوى الله والذب عن أهل البلد النازلين بأرضها.

الفتى النجيب

وما زال ظاهر يمضي عند الشيخ عبد القادر يتعلم. وإذ كان حفظ القرآن وتعلم الكتابة وابتدا يدرس في الأدب أنفق أن أحد المشايخ العلماء من الشام يسمى عبد الغفار الشويكي جاء زائرًا الخليل وبعد زيارته الخليل قصد أن يتفرج على بقية الآثار حتى وصل إلى طبرية فتلقاه سعد بكل إكرام وأنزله عنده وقام بشأن ضيافته بل سعة. فلما كان ميعاد العشاء جاء ظاهر من درسه فسلَّم على الشيخ وجلس أمامه فقال الشيخ لسعد ماذا يكون منك هذا الغلام.

قال له سعد هو أخي شقيقي يتعلم القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله والأدب.

(١) نرى عليًا كان أخا لعمر على رواية عبود وكان سعد بكر أولاده وابنه الثاني اسمه صالح قتله باشا [illegible]

فالتفت الشيخ إلى ظاهر وقال له: هل حفظت يا ابني كتاب الله.

قال له ظاهر: نعم يا شيخي.

قال له الشيخ: وماذا أعجبك منه.

قال: أعجبني كله غير أن الذي رسخ في قلبي أكثر قوله تعالى: {اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء} إلى قوله: {أنك على كل شيء قدير}.

فقال له الشيخ: وماذا حفظت من الأشعار.

فقال: حفظت من كل باب شيئًا.

فقال له الشيخ: وأي قول استحسنته منها أكثر

أجاب ظاهر قول الشاعر:

إن العــواذل قــد أتعبنتــي نُــصُبًا ... وخلــتهن ضــعيفات القــوى كُــذُبًا

فاعص العواذل وارم الليل عن عُرُضٍ ... بــذي ســبيبٍ يقــاسي ليلــه خببــا

حتــى تنــال المعــالي أو يقــال فتــى ... لاقى الـذي يـشعب الفتيـان فانشعبا[1]

ثم قال له الشيخ: وهل قرأت شيئًا من التواريخ؟

---

(١) هذه الأبيات نخبة من قصيدة، مطلعها البيت الأول. المراد بالعواذل النساء من باب الكناية، وذي سبيب كناية عن الفرس، والمراد بالذي يشعب الفتيان أي يهلكهم الموت. ومعنى هذه الأبيات أن النساء تتعب الرجال ولو كن ضعيفات القوى والجسم فاعصهن وسرّ ليلًا غير مبالٍ بأهوال الليل واتخذ رفيقًا لك فرسًا يقاسي تعب الليل بالسير السريع حتى تلاقي ما يعلو به شأنك أو أن تلاقي [illegible]

قال: نعم تاريخ الجاهلية والإسلام.

قال له الشيخ: وما الذي استحسنته منها؟

أجاب ظاهر أجملها تاريخ أبي مسلم الخراساني في الشرق(١) وتاريخ عبد الله الشيعي(٢) وابن كيومرته في الغرب(٣).

فعند ذلك التفت اليخ إلى سعد وقال له: احرص على أخيك هذا؛ فأنه سيكون له شأن عظيم إن شاء الله.

---

(١) أبو مسلم من كبار دهاة الإسلام وهو أول من أظهر الدعوة لبني عباس وقام بها في حروب طويلة تغلب فيها على بني أمية حتى لم تقم لهم قائمة في الشرق.

(٢) هو عبد الله بن ميمون القداح من أكبر دهاة الإسلام وأدهى أصحاب البدع التي ظهرت في الإسلام فإنه كان يدعو سرًا إلى الإمام محمد بن إسماعيل من ولد علي بن أبي طالب وهو يقصد أبطال دولة العرب ورد الدولة الفارسية. وأتباعه من غلاة الشيعة المعروفين بالإسماعيليين، وقد شاع مذهبهم بما نشره العلماء من كتبهم، وهم أشبه بالفرماسون في هذه الأيام ولعل المراد به أبو عبد الله الشيعي أكبر وأول دعاة الفاطميين في المغرب للمهدي العلوي وهو الأرجح.

(٣) كيومرته باللغة النبطية أحمر العين وهو لقب رجل أتى من خوزستان إلى سود الكوفة قلد فيها مذهب الإسماعيلية واشتهر عند العرب بالقرمطي ودعي أتباعه بالقرامطة. وكانت لهم دولة ذات صولة عظيمة أخافوا العباسيين وقطعوا عنهم الأموال التي كانت ترد إليهم من أطراف البلاد ومنعوا الحج وقلعوا عنهم الأموال التي كانت ترد إليهم من أطراف البلاد ومنعوا الحج وقلعوا الحجر الأسود من مكة ولم يردوه إليها إلا بأمر عبيد الله المهدي مؤسس دولة الفاطميين في الغرب الذي كان ينشرون دعوته سرًا. وكلهم من غلاة الشيعة أي الذين غالوا في التشيع لعلي ابن أبي طالب وأولاده وربما يريد به محمد ابن تومرت العلوي الحسيني الذي ادعى أنه المهدي واشتهر أمره بهذا في بلاد المغرب وكثر أتباعه هنالك إلى أن هلك [illegible] والله أعلم.

العرب أهل نجدة

فلما صار لظاهر من العمر ثماني عشرة سنة جعل يخرج للصيد ويعاشر فرسان العرب ويتعلم منهم الفروسية إلى أن خرج في بعض الأيام وحده فسمع في بعض الأحراش صوت امرأة تولول فاتبع الصوت فوجد إنسانًا من أسافل طبرية اغتصب ابنة على القبيح فغضب ظاهر لها واستل سيفه وأتاه فقتله فارتعبت الصبية فقال لها لا بأس عليك وإنما غضبت لك فاكتمي عني هذا، ثم أنه ساير الصبية إلى أن أوصلها إلى البلد. وجاء إلى أخيه سعد فأخبره بالأمر فاغتاظ سعد وقال له بئس ما صنعت أن الدم لا يختفي هارقه وإذا عرف أهل طبرية أننا أدمينا فيهم فكيف تكون أقامتنا بينهم.

فقال له ظاهر والله أنت أكثر مني في ذلك فلو ترى ما رأيتُ لما تعديت ما فعلتُ. أيغتصب فاسق بنية وأسكت عنه؟! لا والله ما ربيتني على هذا لا ولا أكون من ظهر عمر.

فخاف سعد من ظهور الأمر وكان مشايخ عرب الصقر يترددون إلى طبرية وكان يومئذ الأمير قعدان والأمير فائض أو فائز نازلين عندهم فنظرا وجه سعد منقبضًا متغيرا عما كان عليه قبل حضور ظاهر فسألاه السبب. ولئلا يظنا أن ذلك من ثقلتهما عليه أخبرهما الحقيقة واستشارهما في القضية.

فقال له قعدان والله يا سعد إن شئت فنهار غدٍ ترى أكثر من عشرة آلاف خيال على بابك من عرب الصقر ودمي ودمهم أمامك.

فقال له سعد ليس هذا المقصود وإنما خجلي من أهل البلد إذا عرفوا أننا أدمينا

فيهم.

فقال له أن بلادنا في صفد خير من هذه البلاد وأرضها أخصب ومتجرها أكثر وهواها أعدل فقم جهز حالك وأهلك وامضِ معنا وتوطن عندنا ونحن ننزلكم هناك كأنكم منا قبل ظهور الدم.

فاستصوب ذلك سعد وأسرع فاجتمع بأولاد عمه وما أخبرهم بالدم بل قال لهم إن مشايخ عرب الصقر يريدونا ويقولون: إن بلاد صفد أكثر خيرًا من طبرية وإنه استحسن الانتقال إلى هناك واعتمد على الرحيل، فقالوا له لا نخرج مما تراه، فنحن معك أينما تكون. فقاموا جميعًا، باعوا أراضيهم وسافروا مع مشايخ الصقر فأنزلوهم عندهم في كل رحب عدة أيام إلى أن نزلوا إلى الناصرة وبلاد صفد ونظروها فأعجبتهم قرية تسمى عرابة البطوف من بلاد صفد فاتوا ونزلوا بها وفتحوا بيتهم للضيوف حسب عادتهم واستفحلوا بها وقاموا فيها وكان ذلك نحو سنة ١٧٣٠.

الزواج السعيد

وكان سعد وظاهر يترددان إلى الشام مع القوافل فاتفق ذات مرة أن رأوا الشيخ عبد الغفار الشويكي فسلم عليهم وترحب بهم وأخذهم إلى منزله وأكرمهم وسألهم عن أخبارهم فأخبروه بانتقالهم من ناحية الأردن إلى صفد وتوطنهم عرابة وأنهم بكل خير فسرَّ بهم وأضافهم ثلاثة أيام واستحلفهم أن كل مرة يأتون إلى الشام يزوروه ثم مضى على ذلك زمان وصار ظاهر ابن خمس وعشرين سن وأخذ يمضي إلى الشام وحده وينزل عند الشيخ عبد الغفار وكان يأتي عند الشيخ المذكور رجل شريف حسيني غني من معارفه ولكثرة تردد ظاهر إلى دمشق سأل عنه عبد الغفار المذكور فأخبره عن حسبه ونسبه ونظر إلى ظاهر وأحواله وأخلاقه وأعماله وجماله

فأعجبه وكان له ابنة تسمى نفيسة فأخبر عبد الغفار بما في نفسه أنه أحب ظاهرًا وإذا كان يشاء يزوجه ابنته نفيسة فتكلم عبد الغفار بهذا مع ظاهر فاستشار ظاهر أخاه سعدًا وأخذ إجازته بذلك وتزوج نفيسة في الشام ودخل عليها فأقام معها قليلًا وقبل فروغ العام مات أبوها السيد محمد ولم يكن له غيرها فورث ظاهر جميع ماله وأملاكه.

ثم إن ظاهرًا أتاه طلب من أخيه فاستأذن امرأته نفيسة بالسفر، فقالت له أنا أرحل معك حيث ترحل. ففرح بهذا ظاهر وكان بذلك مراده فجهز حاله وجمع ماله وشد أحماله على جماله وساقها إلى أخيه في عرابة وأقام فيها. إلا أن نفيسة لم تعجبها الإقامة في عرابة لعدم وجود أحد من نساء الشوام فيها فأنزلها الناصرة ورتب لها منزلًا وأقام مع أخيه في عرابة لكنه كان يتردد عليها إلى الناصرة.

أحوال الحكام

وكانت جميع البلاد في ظلم شديد من الولاة والحكام[1] فإن محمد باشا في صيدا لم يكن يقف عند مال الميري وعوائده بل عدا ظلمه إلى نهب الفلاحين حتى كل من سمع أنه مستور الحال يرسل إليه ويحبسه ويطلب منه ما هو فوق طاقته.

وكان أحمد الحسين شاملًا بظلمه بلاد صفد مثل (أبو سنان) وطرشيحا وصفد القاسي ودير حنا وسحماتا وجدين وهي قلعته التي يسكن فيها.

(١) راجع كلامنا عن الولاة والحكام في التوطئة. وأما محمد باشا المذكور في المتن فلا نعلم بوجود وزير في صيدا حينئذ بهذا الاسم وربما يكون المراد به إبراهيم باشا ابن إسماعيل باشا وأخو أسعد باشا وسعد [illegible]

وابن ماضي شيخ مشايخ جبل نابلس كان يوقد نار الظلم في نواحي الناصرة وقراها والمرج وحيفا والطنطورة وسانور قلعته التي يقيم فيها. ورشيد الجبر أمير مشايخ عرب صفد على الأطراف من هذه البلاد. والشيخ ناصيف النصار كبير مشايخ المتاولة مثقل بالجور والظلم على بلاد بشارة.

وكان بيت محمد نافع المقيم في قلعة صفد بيده الأمور في تلك النواحي وتحت يده قلعة البعنة ويقيم فيها ابن عمه عبد الخالق وصالح.

فالميري على جميع هذه البلاد عمومًا معروف أن الحاكم يأخذ من الفلاح الربع من حاصلها غير أن هؤلاء الولاة لجورهم وعدم وجود من يمنعهم كانوا بعد أن يأخذوا من الفلاح الربع يرسلون أيضا إلى البيادر وينهبون غلاتها وإذا وصل الوالي إلى بلد ونزل عليها يأخذ بقر أهلها ليذبحها ويطعمها لمن معه فكان الناس من ذلك في ضيق لا يطاق وفي عدم أمان في الطرق من عرب الصقر فكل من وجدوه في الطرق نهبوه والامرأة تخاف أن تخرج من منزلها وكثرت شكاوي الناس من عرب الصقر في قطع الطرق إلى محمد باشا والي صيدا.

فأرسل هذا إلى الشيخ ابن ماضي شيخ مشايخ نابلس يأمره بالإيقاع بعرب الصقر لأنهم بجواره وهو المتدارك لتلك النواحي وكان هذا غاية مراد الشيخ فاستغفلهم وأوقع بهم مرارًا فبحثوا عن السبب وعرفوه كما تقدم.

ديوان العرب

فجمع رشيد الجبر أميرهم المشايخ وكان من الدهاء والعقل والرأي والتجربة غاية الكمال ليستشيرهم في هذا الأمر وقال لهم لو كان العثماني يقف معنا على الميري

ولا يتعدى عوائده لكنا توقفنا عن الفساد في الطرقات ولكن لا يقف على حده معنا. وإذا مددنا يدنا إلى قطع الطرقات يحث علينا أهل البلاد لتغزونا كما رأيتم من حكام جبل نابلس. وإذا قمنا أمام أهل نابلس ربما نقاومهم ونغلبهم إلا أنهم أكثر منا لأن العثماني معهم فإنهم يحثون أهل البلاد للاتحاد معهم على غزونا. فإن الرأي الذي أراه أن نختار وحدًا من أهل البلاد نقيمه علينا رأسًا ونكون في طاعته ونغزو باسمه النابلسيين وغيرهم من الذين يغريهم علينا العثماني وعند ذلك لا يقوم أحد من أهل البلاد ضدنا لكون رأسنا منهم والغزو يكون باسمه ولا يكون لنا عداوة من أهل البلاد بل بالخلاف إذ ربما تصير بذلك جميع البلاد معنا. وأنتم عرفتم الزيادنة وما هم عليه من الكرم والجود وحبهم لنا وصدقهم معنا ونحن الذين أتينا بهم إلى هذه البلاد وقد شاع صيتهم بكرمهم وجودهم وفروسيتهم وقد ملكوا قلوب الناس بذلك وقد سمعتم بما جرى بينهم وبين باشا صيدا لأجل ظلمه أهل العرابة أتباعه فقد أخذوا خاطر الباشا في أن يكونوا المتولين في عرابة من قبل الباشا وكان محمد باشا المذكور أرسل إلى عرابة متسلمًا ليأخذ ميري البلد فنزل المتسلم عليهم وقبض الميري المعتادة وبعد ذلك طلب أجرة طريقه منهم واشتد عليهم به وطلب منهم فوق طاقتهم وبعد أن دفعوه له تقدم إلى خدمه ونهبوا البيدر. فاغتاظ من ذلك أهل البلد وأوقعوا بالمتسلم وقبضوا عليه وقصدا قتله فعرف بذلك سعد وظاهر وتسلحوا مع حاشيتهم وأولاد عمهم واتوا وتوسطوا القضية بكل لين ولطافة فخلصوا المتسلم من يد أهل البلد ورجعوا له أجرة طريقه وردوا لأهل البلد نهبهم وأخذ سعد المتسلم وأكرمه في بيته وثاني يوم ركب هو وأخوه ظاهر إلى صيدا وقابلا محمد باشا وأعرضا له ما وقع فشكرهما على ذلك وقد أراد أن يوقع بأهل البلد فتلطفا به إلى أن عفا عنهم وترجواه ألَّا يرسل للبلد أحدًا من أتباعه بل هما يكونان خدامه في ذلك ويحضرا له في كل عام ميري البلد وعوائد متسلمها أيضا بغير أجرة.

فقبل ذلك وأعطاهما ولاية عرابة ورجعا مسرورين بولايتهما هذه وانسر بهما أهل البلد أكثر من سرورهما. فإن شئتم أن نختار منهم أعقلهم وأفرسهم وندعوه ونقوم معه.

فالشيخ فائز والشيخ قعدان وجميع مشايخ عرب الصقر استصوبوا رأيه وقالوا له ما الذي تراه أيها الأمير الآن.

فقال لهم أنا أمضي مع الشيخ قعدانا والشيخ فائز ونتوجه إلى عرابة ونجعل أنفسنا عابرين في سبيلنا غير متقصدين وندخل عندهم ونسامرهم ودعوني أتكلم لنختبر أعقلهم ونتفق معه فقالوا له سمعًا وطاعة. ثم قاموا واتوا عرابة قاصدين الزيادنة وطرقوا باب سعد فخرج إليهم وتلقاهم بالرحب والسعة حسب عوائده معهم وأنزلهم بالكرامة.

السمر

وفي المساء حضر أخوه ظاهر وجميع بني عمه وجلسوا بعد العشاء يتناومون ويتسامرون. فقال لهم رشيد الجبر أريد أن أرمي عليكم مسألة. فقالوا له علامك يا الأمير.

قال هذا رمحي -وقام وقبض على رمحه- ثم قال أريد أن أجعل هذا الرمح على أرض من صخر الصوان فاخبروني ما الحيلة بهذا. فكل قال قوله. فسعد قال هذا الطلب المحال وبعض بني عمه قال يجب أن نخرق الحجر. وآخر قال غير هذا ليس المقصود، إلى أن جاء الدور إلى ظاهر فقال: هذا أسهل ما يكون أيها الأمير.

فقال له الأمير رشيد: كيف ذلك؟

قال له ظاهر: هات يدك وأمسكه أمامي فمسكه أمامه ومد ظاهر يده ومسك الرمح جاعلًا يده فوق يد الأمير رشيد؟

فقال له الأمير رشيد وبعد هذا

فقال له ظاهر هو ذا الرمح واقف أو هل تعلم أن الرمح يقف أو يغرز في حجر صوان بدون أن تسنده سواعد الفرسان.

فأعجب به الأمير رشيد وقال له: أن أكن رأيت ما رأيت فما يمنعني شي أن أقول إني لك أتيت وأنت لنا يا ظاهر.

وترك الكلام حتى هموا أن يناموا ثم خلا رشيد الجبر مع شيوخه وقال لهم كيف رأيتم وما رأيكم.

قالوا له لا نرى إلا رأيك.

قال والله أخذ عقلي هذا الولد وقد أنذرني الزجر وغمني إذ وضع يده فوق يدي ودلني بهذا على أنه سيملكنا فلا نعود نقدر على مخالفته ويعلونا ولكن لا بأس في هذا ومن يقدر على معارضة ما قدر الله ويرد ما هو كائن. ولا يمنعني هذا من أن اختاره. فادعوا لنا سعدًا قبل النوم إن أردتم. فأرسلوا أخبروا سعدًا.

فأتى إليهم وقال خيرًا أيها الأمير إن شاء الله.

قال له رشيد ألا تعلم لماذا أتيت إليك.

قال له سعد: إلا زائرًا لتشرفنا بكم ولمحبتكم لنا لتروا سلامتنا.

قال رشيد: نعم هو ذلك أولا ولكن أتيت أيضا لأختار واحدًا منكم يكون على رأسنا ونحن نكون طوع يده وفي ظهر نشد أزره وننتصف من الباشا الذي في صيدا ومن ابن ماضي شيخ مشايخ نابلس لكيدهم لنا.

فقال له سعد: ومن نكون نحن أيها الأمير.

فقال رشيد: ما عليك فانا اخترت أن أقيم ظاهرًا كبيرًا علينا وأخرج به (أدربه وأخرج به غازيًا).

فقال له سعد: كلنا أمامك أيها الأمير وهذا يفرحني كثيرًا لأنه ليس أخي وشقيقي فقط بل لأني أنا ربيته.

فقال له رشيد: أرسل أحضره فأرسل سعد أحضر ظاهرًا. وتكلموا كثيرًا بهذا الشأن وانتهى الحديث معهم بأن الزيادنة يقومون ويسكنون طبرية وأنهم يسببون مخاصمة مع متسلمها وكانوا ليس بعيدين عن هذا واتفقوا أيضا على أن ينزل رشيد الجبر وعربه في المرج بين عكا والناصرة وأنه متى وقع بين الزيادنة ومتسلم طبرية أقل مخاصمة يرسل إليه ظاهر فيخبره بذلك فيأتيه بعربه.

أول الفتح بطبرية

باتوا تلك الليلة وعند الصباح بعد الفطور توجه رشيد الجبر إلى قبيلته مع من كان معه، وقام سعد وظاهر وباقي الزيادنة إلى طبرية واتخذوا بها مسكنًا وجعلوا يتعرفون بأهلها ويترددون عليهم ويوادونهم ويكتسبون قلوبهم بمعروفهم وكرمهم وجودهم.

وكان المتسلم في طبرية شاويش من اتباع وزير صيدا محمد باشا وزير صيدا ليس عنده عسكر إلا مقدار عشرين أو ثلاثين جنديًا. فاتفق أن رجلًا من طبرية اسمه محمد نصار ضمن من الحاكم ضيعة... وبعد أن دفع مالها المقرر عليها للشاويش طلب منه الشاويش كيسين أيضا ظلما لأنه بلغه أنه غني. وإذ توقف محمد المذكور عن الدفع وتمنع وضعه الشاويش في الحديد ورماه في الحبس وأمر بعذابه ليدفع الكيسين. ولما بلغ هذا والده هرب من وجه الشاويش لئلا يؤخذ أيضا بذنب ابنه. فاستشار بعض أهل بلده في خلاص ولده. فقال له: والله مالك إلا فارس الغبراء عمدة الزيادنة.

فقال له: ومن هو؟

قال له: هو ظاهر. أقصد حماه فيخلص لك ابنك.

فمضى الرجل إلى عرابة قاصدًا له فوجده في الطريق آتيًا مع أخيه سعد وابن عمه محمد العلي. فتقدم إليه ووقع على ركابه وبكى وقال له: إني قاصدك يا شيخ وأنا بعرضك.

فقال له ظاهر: ممن؟

قال له: من الشاويش وأخبره بأمر ابنه مفصلا؟

فقال له ظاهر: لا بأس عليه ولا تخف واتبعني. ثم إن ظاهرًا استشار أخاه سعدًا. فقال له سعد: أرسل أعلم رشيد الجبر ليرسل لك خمسين فارسًا ومتى صاروا عندك فادخل على الشاويش وكلمه بالمعروف ليعفي عن الرجل. فإن فعل كان به وتدع القيام عليه إلى وقت آخر وترجع خيل الصقر. وإن لم يقبل رجاءك به تهجم على

الحس وتكسر بابه وتخرج من يكونون فيه وتقبض على الشاويش وبعد هذا نرى ما يكون. فقبل ذلك ظاهر. وإذ أتى باخيه وابن عمه ودخل على الشاويش وكلمه باللين وترجاه بالمعروف أن يطلق سبيل الرجل أبي الشاويش. فخرج ظاهر من عنده مغتاظًا ودعا الفرسان وهجم بهم على باب الحبس وكسره واخرج من كان فيه. فسمع الشاويش الضجة والضوضاء وبلغه الأمر فخاف على نفسه وقام ركب مسرعًا وخرج من طبرية.

ثم أن ظاهرًا بعد أن اعتق المحبوسين دخل مع جماعته على الشاويش فما وجده. فسأل عنه فاخبروه أنه خرج هاربًا. فأرسل عشرين فارسيًا من عرب الصقر وعليهم ابن عمه محمد العلي فتبعوه وأدركوه وقبضوا عليه وجاءوا به إلى ظاهر. فتلقاه ظاهر بالإكرام وقال له: لا بأس عليك.

ثم إن ظاهرًا أحضر بعض أهل طبرية والفقيه والإمام والقاضي وكتبوا محضرًا أن الشاويش ظلم وتعدى حقوقه وبغى على الرعية. ولذلك قامت عليه الرعية يدًا واحدة لتقتله، وأن ظاهرًا منعهم وكف يده عن الولاية خوفًا عليه. ووضعوا جميعهم أساميهم به. وأرسل الشاويش ومعه رسلا من قبل ظاهر بهذا المحضر.

وكان محمد باشا قد بلغه أن عند بعض عرب الصقر فرسًا أصيلة تسمى الزرقاء وأرسل طلبها مرارًا ليشتريها منهم فضنوا بها عليه. وكان ظاهر بلغه هذا فأرسل إلى رشيد الجبر وترجاه بإرسال الفرس المذكورة فاشتراها رشيد من أصحابها وأرسلها إلى ظاهر. وبعد أن توجه الشاويش إلى صيدا بقليل كتب ظاهر إلى محمد باشا يخبره بما وقع من أهل طبرية وأنه هو الذي حمى شاويشه منهم. وعرّفه أن هذه البلاد لا يستقيم أمرها إلا بالعدل والوقوف عند الحدود. وأن الخدَمة لطمعهم يطلبون زيادة لأنفسهم فوق المقرر لمولاهم على البلاد فيجلبون بذلك المذمة لسيدهم بسبب هذا

الظلم الذي يكون سيدهم بريئًا منه. ثم ترجاه أن أنعم عليه بأن يقوم هو بولاية طبرية وعرابة ويدفع كل سنة ميري طبرية وعوائد متسلمها نظير عرابة. وطلب منه أن يرسل له تقريرها. ثم أخبره بالفرس وأنه لحبه له ولإرضاء خاطره اجتهد كثيرًا حتى حصل عليها وهي واصلة هدية له حبًّا وكرامة.

فلما وصل الشاويش مع الرسل ورفعوا المحضر إلى الباشا وقرأه وعرف ما فيه اغتاظ من أهل طبرية وغضب جدًّا فقام وقعد وأراد أن يركب بنفسه لساعته لينتقم منهم. وفي تلك الساعة وصل مكتوب ظاهر والفرس فلما قرأه ورأى الفرس انشرح صدره وانسر بالفرس وأعجبه فعل ظاهر لأن الشاويش أخبره عنه أنه تلقاه بكل كرامة. فعند ذلك كتب لظاهر بيورلدي بولاية طبرية وأرسله له مع الخلعة فلما وصل سُرّ ظاهر وفرح به أهل طبرية وبسط فيهم العدل والنهي عن الحرام وتمهيد الطرق من الموانع ورتب له خدمًا وخيالة تركب معه.

سعة ونجاح

وكان يقوم بجميع تدبيره أخوه سعد ولم يكن ظاهر يفعل شيئا إلا عن أمره. وجنَّد عنده بعضًا من أهل البلاد والبعض من العربان، وجعل رئيس جيشه ابن عمه محمد العلي، وكان من الفروسية والشجاعة والقوة والخداع في الحرب غاية ما يكون. وكان ذلك سنة ١٧٣٣.

وكان ظاهر في تردده إلى الناصرة لرؤية امرأته نفيسة (ولم تلد له ولدًا) تزوج امرأة من الناصرة فولدت له ابنه البكر صليبي ثم تزوج امرأة شامية اسمها دهقانة فولدت له ثلاثة أولاد الأول عثمان والثاني سعيد والثالث علي. فأرسل أحضرهم إلى طبرية وحصنها جدًّا وجعلها مقره وحين سمع بعض أقاربه بتوفيقه ونجاح أحواله

وولايته لطبرية قصدوه واتوا إليه. فصار عنده من أقاربه الزيادنة وحاشيتهم ما ينيف عن مائتي فارس.

ولما استقر في طبرية جعل يأخذ البلاد التي حولها شيئًا فشيئًا ويطلب من وزير صيدا التزامها مدعيًا أنه يريد يحميها من العربان، لأن في ذلك الوقت كان قبائل التركمان وعرب الصقر جاعلين لهم عوائد على كل بلد شيئًا معلومًا من الظلم، وبعد أخذهم له كانوا ينهبون ويقطعون الطرق. والباشا لأجل ذلك ومحافظةً على هدايا ظاهر ومحبته له ما كان يمنع عنه مطلوبه فكان كل بلد يطلب ضمانها يرسل له حالًا تقريرها. وحالما يتولاها ظاهر يبسط العدل فيها ويمنع دفع عوائد الظلم للعربان ويمهد طرقها بالأمان. فلأجل ذلك أخذ بسهولة جميع البلاد التي حول طبرية. وفرح به أهلها لعدله فيهم ولحمايته لهم. وشاع صيته وصار أهل البلاد تريده وترغب ولايته ويلتجئون إليه من ظلم ولاتهم.

وكان في جوارهم في هذه النواحي قلعة جدين وهي قلعة حصينة وكان واليها أحمد الحسين من بيت قديم شريف وكان أهل هذا البيت ولاة هذه القلعة أبا عن جدٍّ. وكان أحمد المذكور يحكم جميع البلاد الجبلية التي حولها كالوبر وطرشيحا وأبو سنان. وكان العربان يعيثون فسادًا في هذه البلاد لعدم إمكان واليها دفعهم ومنعهم. فلما سمعوا ما يجري من ظاهر في طبرية والبلاد التي حولها من منع الجور والظلم والتعدي أرسل مشايخهم يلتجئون إلى ظاهر فقبل رجاءهم وأخذ يرصد الأسباب والأوقات إلى سنة ١٧٣٨.

فاتفق حينئذٍ أن بعض الخدم اجترم ذنبًا وهرب ملتجئًا إلى أحمد الحسين. فأرسل ظاهر يطلبه منه مرارًا وأحمد يدافعه ويطاوله. إلا أنه في آخر جواب أغلظ له القول فغضب ظاهر لذلك وأرسل إليه يتهدده فلم يرعوِ. فأرسل ظاهر إلى وزير صيدا

يشكو له من أحمد الحسين ويعرّفه بظلمه وجوره وأن أهل البلاد التجئوا إليه من ظلمه ويستأذن الباشا في حربه وقتاله. وكذلك فعل أحمد الحسين فاستأذن الباشا في حرب ظاهر. وليس مقصود الباشا إلا ضرب القوم ببعضهم حسب عوائد العثماني. فأرسل لكل واحد أن يغزو صاحبه.

وعند ذلك جرَّد ظاهر خيله وقام إليه بعسكره وقد اجتمع عنده من أهل البلاد وأهل بيته وعرب الصقر مقدار ألف وخمسمائة ولاقاه أحمد الحسين بمثل هذا وأكثر فكسره ظاهر وقتله ودخل القلعة واستولى عليها ولم يأخذ شيئًا من مال أحمد. وإنما أخرج عياله منها ورتب لهم معاشًا. وتولى جميع هذه البلاد. وفرح أهلها به إذ أنقذهم من ظلم العربان وتعديهم، وسلك طريقها بالأمان، وأرسل طلب ضمانها وتقريرها من الباشا وزير صيدا، فأرسله له فرتب ظاهر فيها الولاة وأمرهم بعدل الله والرحمة في الرعية وتأمين الطرقات. وشاع أكثر حسن صيته بذلك.

إغاثة المغاربة

وكان ظاهر حين دخل قلعة جدين رأى من المتجندين عند أحمد الحسين فتى حديث السن مغربيًا ماهرًا في الحروب شجاعًا باسلًا من الغرب الأقصى جميل الصورة حسن الهيئة فدعاه وكلمه فأبان عن لسان مليح ومنطق فصيح فقال له ما اسمك أجاب: أحمد الدنكزلي.

قال له: ما صنعتك- أجاب كنت في بلدي حطابًا وأما الآن فعسكري... فقال له أتريد تخدم عندي. أجاب ومن يأبى العز. قال له الشيخ أو تعلم المطلوب منك لي إذا خدَّمتك.

قال نعم: الأمانة والشاهدان على ذلك الله ورسوله والقاضي سيفك.

قال له ظاهر: أحسنت. وخلع عليه ثم قال له أتعلم أحدًا من قومك في هذه البلاد.

أجاب لا تخلو (منهم).

قال له ظاهر: جعلت أغا على من تعينه عندك منهم فعين من تجده. فأجاب سمعًا وطاعة.

ورتب له ظاهر ولاتباعه المرتبات وصار الدنكزلي يركب معه أينما توجه وما مضى قليل حتى صار عنده أكثر من ألف مغربي فاشتد بهم ظاهر وتقوى.

صفد وبلادها

كانت صفد حينئذٍ ذات قلعة حصينة وقديمة وهي كرسي ناحيتها نظير عكا اليوم وكان صاحبها محمد نافع، وله قلعة أخرى بالقرب منها اسمها البعنة ولّاها لقريب له اسمه عبد الخالق صالح وله سحماتا فما زال ظاهر يلاطفه ويحتال عليه بالوعد والوعيد إلى أن استنزله عنها وتولاها وأحضر تقريرها من وزير صيدا.

ثم كاتب عبد الخالق صالح المتولي في الدير والقاسي أن ينزل له عنهما كما فعل محمد نافع فأبى ذلك وجعل ظاهر يحتال عليه فما أثرت فيه مكايده وكان من الدهاة المحنكين في الأمور ومن ثم عزم ظاهر أن يغزوه فنهاه أخوه سعد وقال له هذا من دهاة البلاد فاحرص على سعادتك ولا تحاربه بل طاوله وتقرب إليه واخطب ابنته ففعل وبعد أن تزوج ابنته تنازل له عبد الخالق عنهما وفوض أمرهما إليه ورتب لهما

ظاهر الولاة وصار عبد الخالق كواحد من عائلته وكان هذا نحو سنة ١٧٣٩.

المتاولة

ثم التفت إلى المتاولة وهم قوم من الشيعة يلعنون الشيخين أبا بكر وعمر، مشايعين لعلي وهم من ذوي البأس والجسارة والنجدة وأميرهم وكبيرهم ناصيف النصار (من بيت علي الصغير) وبلادهم بلاد بشارة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد. وبما أن بحدود بلاده بلدين لهم وهما البصة ويارون فكتب لهم أن ينزلوا له عنهما فأرسل له ناصيف الجواب بالرفض واغلظ له القول ومن جملة ذلك قال له: لا تظن أننا نظير سوانا فوالله أن عندنا مقابل سيفك سيوفًا أحدّ منه وبإزاء كيدك مكايد كثيرة فالأولى بك أن تدعنا غافلين عنك باعتدائك على جيراننا والآن والله العظيم إنك تندم لأننا نحن طالما بغي علينا فانتصفنا من الباغي، وعاهدنا فقمنا بعهدنا وكنا من أعظم أنصار أصحابك فدونك الأمرين أنت ورأيك ونحن نرى فيما يبدو منك والسلام.

فلما قرأ ظاهر جوابه أنزعج منه واستشار أخاه سعدًا بأمره فقال له سعد أنا أكفيك أمرهم وركب واجتمع بناصيف وحادثه بالأمر فما استفاد شيئًا ولما عاد راجعًا إلى ظاهر وأخبره بما وقع له غضب ظاهر وأرسل حالًا يطلب تقرير البلدين من الباشا فأرسله له وحينئذٍ أرسل ظاهر طرّدَ ولاة المتاولة منهما وتولاها هو فبلغ ذلك إلى ناصيف فجرّد هذا خيله وآتاه فتلقاه ظاهر (بقرب قرية طربيخة) ووقع بينهم الحرب طالت أيامًا وكانت سجالًا يومًا لهذا ويوما لذاك. فلما رأى الدنكزلي ذلك استغفل القوم ومضى في طريق غير مسلوك وكبس المتاولة في بلدهم على غرة وقبض على أولاد المشايخ وأخذ معهم ولدين لناصيف ورجع في طريقه إلى ظاهر

وكان قد بلغ الخبر بذلك إلى ناصيف وهو في القتال فالتزم أن يترك موقع القتال ويسرع ليخلص أولاده فاتبعه ظاهر برجاله وهم يقتلون بالمتاولة الذين انكسروا لسبب ذلك شر كسرة. ولما وصل الدنكزلي عائدًا من غارته وأخبر ظاهرًا بما فعل سر بذلك ظاهر وأخذ الأولاد وجعلهم عنده مكرمين تحت الحفظ.

فلما وصل ناصيف إلى بلدته (تبنين) وجد داره خالية من الأولاد وخيل ظاهر تابعة له تطارده فأرسل حالًا إلى سعد يطلب الصلح وأنه يتنازل لظاهر في مطلوبه بأن يرجع له أولاده فسعى سعد بالصلح على أن تكون البصة ويارون لظاهر مضافة إلى بلاده وأن جميع بلاد المتاولة لا يكون لهم مع الباشا شأن في دفع مال الميري بل يكون ذلك مع ظاهر وهو يمنع عنهم كل ظلم يأتي عليهم من قبل الباشا ويساعدهم على كل من ناوأهم وأراد قتالهم وكذلك إذا وقع على ظاهر حرب وطلب مساعدتهم فيكونون أول المساعدين له (أي تحالفوا محالفة هجومية دفاعية) فلما عقد الصلح بينهم على ذلك أحضر ظاهر أولاد ناصيف وقبلهم وخلع عليهم وأرسلهم مكرمين فلما وصلوا إلى دارهم سُرَّ بذلك والدهم ثم أخذ رأسين من خيل الأصائل ومضى فقدمهما بذاته إلى ظاهر فترحب به ظاهر كثيرًا وقدّم له الإكرام الفائق وخلع عليه وأسقط له من المال الميري المقرر على بلاد بشارة الربع وجدد له ناصيف اليمين على السيف والمصحف أن يكون هو وقومه معه يدًا واحدة ورجع إلى بلاده ففرح المتاولة بذلك لأن الباشا كان يكرههم للدين ويعدهم من الروافض (لكونهم موالين ومشايعين لعلي بن أبي طالب ورافضين لأبي بكر وعمر وعثمان) وكان دائمًا يشد عليهم ويغري النابلسية عليهم.

بر عكا العاصمة

فلما رأى ظاهر أن ارتاح باله من جهة المتاولة وصفت له البلاد وقد خلت من ولاة العثماني (الأتراك) إلا مدينة عكا كتب إلى وزير صيدا يطلب منه التزامها وادعى أن مراده يحميها من القرصان المالطي؛ لأنه كان يجول يومئذٍ في تلك النواحي فرفض الباشا طلبه فراجعه بذلك ظاهر مرارًا زاد له في مال الميري المقرر عليها فما استفاد من ذلك شيئًا فغضب لذلك واستشار أخاه سعدًا فقال له هذا: اذهب وخذها بالسيف. فقال له ظاهر أخاف عاقبة ذلك من السلطان.

فقال له سعد ما عليك بأس من السلطان إذا أخذتها وقمت له بمالها المقرر عليها؛ لأن العثماني (الأتراك) لا يسأل أن كان المتولي باشا من رجاله أو من أهل البلاد وعنده بالأمر بالسواء بشرط أن مال الميري يصل له تمامًا ثم من حيث إن صارت معك كل البلاد وأهلها يريدونك فلماذا تجعل بينك وبين إسلامبول واسطة وتتغرم للباشا عوائد ولاتها وتدفع للولاة عليها عوائدهم فكأنك بهذا تدفع مضاعفًا عوائد الولاة. ونحن عملنا ذلك في ابتداء أمرنا برضانا لنتولى البلاد بتقرير من الباشا لأننا كنا لا نقدر على مخالفته وأما الآن فقد صرنا بحمد الله أقوياء ولا يقدر الباشا أن يقاومنا فأرسل خذ عكا واقتل متسلمها واقطع عوائد ولاة البلاد التي تدفعها للباشا فإن رضي بذلك الباشا واقتصر على ميري البلاد كان بذلك الخير وأن قصد الحرب والقتال معنا استعدينا له والنصر بيد الله يعطيه لمن يشاء.

فعمل ظاهر كذلك وأرسل ابن عمه محمد العلي في ثلاثة آلاف بين فارس وراجل وجاءوا عكا ولم يكن عند متسلم عكا أكثر من مائة ويقول البعض من شيوخ زماننا: إن محمد العلي قتل متسلم عكا والبعض يقولون: إن المتسلم قبل

وصول محمد العلي بلغه الأمر فهرب في البحر إلى مولاه ويقول البعض إنه قبض عليه وأرسله إلى ظاهر فأكرمه ظاهر وأرسله إلى مولاه وهذا الأرجح[١] ثم أن ظاهر قام وانتقل إلى عكا وتولاها بذاته. ولما وصل المتسلم إلى الباشا لم يقدر هذا أن يفعل شيئا لعدم قوته وصبر على ناره وصار يترصد الحوادث لظاهر وهو على حقد عظيم.

وجعل لعكا سورًا وحصّنها وشيد أبراجها وحصّن جيدًا البرج المسمى برج الذبان وجعل أقامته فيه وفرغ من ذلك في سنة ١٧٣٣[٢].

---

(١) قال عبود الصباغ بهذا الشأن: ولما نظر ظاهر أنه ارتاح من سليمان باشا ومن ابن عمه محمد باشا أراد أن يأخذ عكا فأرسل خبرًا إلى سكان عكا بان يرحلوا منها وقال لهم كل من لا يخرج من عكا اقتله فحالًا أهل عكا خرجوا منها وتفرقوا في البلاد ولم يبق فيها إلا القليل قعدوا في خان الفرنساوية لأن الفرنساوية ما قال لهم أن يخرجوا لأنه حبيبهم لأن الذي يرحل يلتزم إلى خسارة وتعب وهو ما كان يريد يتعب الفرنساوية ولا يريد خسارتهم فإذا خرجت أهل عكا بقيت خرابا ليس فيها أحد وبالحال ظاهر أرسل خبرًا إلى وزير صيدا أن عكا خراب وأريد أن التزمها فإن كنت تريد فأرسل لي (تقرير) التزامها ونزل إلى عكا وإذ نظر وزير صيدا أن ظاهر خرب عكا ونزل عليها بعسكره التزم أرسل له (تقرير) التزامها بالمعروف. ولما اتجه وزير صيدا إلى جودة الحج فحالًا ظاهر ابتدأ في عمارة السور وعمره بكل عجلة وكمله قبل أن يعود من الحج. وكان ظاهر يعطي الوزير مال الميري كاملا بدون أن ينكسر عليه شيء.

(٢) كذا في المخطوط وهو خطأ لا محالة وربما كان الأصل سنة ١٧٥٥ أو سنة ١٧٥٣ لأنه من المحقق على رواية عبود ورواية مخائيل بريك أن ظاهرًا استولى على عكا بعد موت سليمان باشا في طبرية سنة ١٧٤٤ كما سيأتي بيانه وقد أتم بناء سوره نحو سنة ١٧٥٠ كما يدل عليه التاريخ الذي نظمه لذلك الخوري نقولا الصائغ وقد طبع في ديوانه وفي تاريخ الأمير حيدر وهذا نصه:

سورٌ منيعٌ عاصم عكا فما ... تُغتال إذ قد عيد منه الداثرُ

من ظاهر العمر الذي اشتهرت له ... بين البرية أنعمٌ ومآثر

تمت محاسنه فيرنو ناظرٌ ... في حسن مبناه ويخسأ ناظرُ

لما بناه الشيخ ظاهر عنوةً ... أعناه تاريخ بناه ظاهرُ

سنة ١١٦٤ هجرية سنة ١٧٥٠

الناصرة

ثم أن الناصرة (كانت) بندر النابلسية لكونها مورد (بضاعة) الشام وعكا ولأجل ذلك كانوا يشترون منها جميع احتياجاتهم ومن ثم كان لهم عوائد على حكامها ثم كان الواحد منهم لشدة عتوه إذا اشترى من تاجر شيئًا ودفع له ثمنه كان يرى له بذلك الفضل العظيم وإذا لم يدفع له ثمنه لم يقدر التاجر أن يكلمه لشره ويرى احتمال ذلك من التاجر واجبًا عليه فيذهب بالبضاعة وهيهات أن يوفيه ثمنها وكانوا متسلطين على أراضي المرج ولما كان حرم ظاهر في الناصرة وكان يتردد إليها رأى من أهل الناصرة كل اعتبار وإكرام فأحبهم وخفت البلد على قلبه وعلق أهلها لأنه رأى منهم النجدة والمروءة فلما تولى صفد وهي تابعة لها حماها من النابلسية ورفع عن أراضي المرج مظالمهم ومنع كل تعدي أو ظالم يعتدي على أهل البلد فحقدوا لذلك عليه وأضمروا له الشر.

حيفا

وكانت حيفا القديمة من ولايتهم في آخر حدودهم فقام ظاهر وأتى إليها

وقد حُفر على السور فوق الباب تاريخ آخر لشاعر مجهول كادت تمحو الأيام ولربما كان للشيخ عبد الحليم الشويكي وهذا نصه:

بأمر الله هذا السور قاما ... بعكا من فتى بالخير قاما
أبي الفرسان ظاهر المفدى ... أعز الله دولته دواما
فباطن بابه الرحمات فيه ... وظاهره العذاب لمن تعامى
وذا بالله صار حمى فأرّخ ... بناك الله فخرًا لا يساما

وخبرها وبنى قريبًا منها بربع ساعة على آخر حدوده بلدًا دعاها حينئذٍ العمارة الجديدة حتى غلب عليها بعد ذلك اسم حيفا الجديدة. ثم أقام فيها برجًا وكان يقول إنه فعل ذلك خوفًا من القرصان الكفار[1] كما ادعى هذا عندما أخذ عكا وحصنها مما كان يعجز عنه النابلسية.

مؤامرة واتفاق

وكان أيضًا بالقرب من حيفا بلدة اسمها الطيرة وأخرى بجوارها اسمها الطنطورة وكلاهما من أملاك أو بولاية النابلسية فسطا عليهما ظاهر وطرد ولاتهما ورتب فيهما من يعتمد عليه فيهما.

فلما بلغ ذلك أمير النابلسية إبراهيم الجرار والشيخ ابن ماضي غضبوا كلهم لذلك وهموا أن يجردوا خيلهم على ظاهر وتشاوروا في ذلك وعولوا أخيرا على أن يكاتبوا بذلك رشيد الجبر أمير عرب الصقر ليسلخوه عن ظاهر ويكون معهم وكان عرب الصقر قد حقدوا على ظاهر لأنَّهم هم الذين قاموا أولا بناصره وبهم ارتفع شأنه ولما تولى البلاد واستتب له الأمر رفع يدهم ومنعهم من السلب والنهب في الطرقات ومن عوائدهم التي كانوا يأخذونها من كل البلدان التي دخلت بعد ذلك في حكمه.

ولما وصل كتاب النابلسية إلى رشيد الجبر سرَّ بذلك وأجابهم لما طلبوا وتأهب للقتال وكذلك أخذ النابلسية يجردون خيلهم حتى بلغ أمر ذلك إلى ظاهر لكن لم

(١) المراد بهم فرسان مالطة الذين كانوا يحمون تجارة أوربا في البحر من قرصان المسلمين الأتراك والمغاربة وكانوا يهاجمون المدن البحرية ويسبون أهلها ويسلبون بيوتهم ما استطاعوا إلا أنهم كانوا

ينزعج له؛ لأنه لم يكن يعلم بأن عرب الصقر اتفقوا معهم ومن ثم قام بمن كان عنده من المغاربة وأهل بيته وحاشيته وأهل البلاد المجاورين في نحو ثلاثة آلاف رجل وجاء إلى المرج وحط عسكره هناك ثم ركب وحده إلى الناصرة لينام ولعدم معرفته بخيانة الصقر أرسل إليهم يدعوهم ليأتوا إليه صباحًا للمرج ليكونوا له عونًا على قتال النابلسية.

كشف المؤامرة

وفي الغد قبل الفجر أتاه رجل من الصقر اسمه أبو حلاف وطلب مقابلته في تلك الساعة عاجلًا فدعاه إليه وهو في فراشه وقال له: من أنت وما شأنك؟ قال له: أنا من العرب الذين دعوتهم ليأتوك صباحًا نجدة وقد علمت أنك لم تعلم بما هم عليه الآن من الخيانة لك والخائن يا شيخ يخونه الله ولذلك جئت لأخبرك أنهم اتحدوا واتفقوا مع النابلسية عليك ومرادهم أن يحيطوا بك غدًا برجالهم من كل جانب، فخذ حذركم، وأنا راجع إليهم خوفًا على دمي إذا دروا أني أتيت إليك. فأنعم عليه ظاهر ورجع إلى قومه.

لكن ظاهر قلق لذلك جدًا حتى طار النوم من عيونه لأنه كان يتوقع مساعدة فرسان الصقر له ولذلك ظن أن في ثلاثة آلاف من رجاله كفاية لكن تغيرت الحال بانقلاب الصقر عليه ومن ثم أرسل دعا إليه أخاه سعدًا وقائد عسكره محمد العلي ابن عمه وأخبرهما بذلك واستشارهما فيه فلما سمعوا ذلك منه صاروا من الخوف والدهشة صمًا بكمًا. ثم قالوا له أن الوقت ضيق لا يسعك أن ترسل تستدعي كل من هو ذو نجدة ومروءة ليساعدك، وما بقي لنا إلا أن نستسلم لقضاء الله والتأهب للحرب والجد في ذلك. ثم تشاوروا في حشد الرجال وترتيب القتال وعولوا اخيرا

على أن الدنكزلي يكمن مع نصف من كان معه من المغاربة في الطريق شمالًا ومحمد العلي يكمن في خمسمائة يمينًا وأن يتقدم ظاهر ويناوش القوم القتال بالفين وينكسر أمامهم إلى ما بين الكمينين ومتى لحقوهم إلى هناك يخرج عليهم أصحاب الكيمين ويعود عليهم ظاهر برجاله وتحالفوا كلهم على الموت في المرج أو على النصر ومضوا على هذا وهم في رعب شديد.

وقام ظاهر صلى ورتب الكمينين وتقدم إلى أن وصل -كما أخبرني القبطان مخائيل القبرصي- إلى أمام كنيسة العذراء فنزل عن جواده وسجد أمام باب الكنيسة ورفع يديه وفيهما التراب وعفر بهما وجهه وقال: هي يا ابنة عمران جعلت اتكالي عليك بعد الله فإن أنتِ نصرتني فلا أنسى لك هذه الكرامة إلى آخر حياتي ويكون زيت قنديلك من عبدك.

القتال

ثم ركب برجاله وتقدم إلى المرج فوجد النابلسية هاجمين عليه مع عرب الصقر فناوشهم القتال قليلا وتأخر راجعًا منكسرًا فتبعوه إلى أن صاروا بين الكمينين في مكان بالمرج يقابل الروحة فخرج عليهم أصحاب الكمينين بالضرب والقتل فلما رأى الصقر أن الضرب عليهم من الجانبين وقد رجع ظاهر عليهم سقطت نفوسهم وولوا منهزمين من كل جانب ولما رأى ذلك النابلسية خافوا ورجعغوا على أعقابهم وتبعهم ظاهر برجاله يقتلون فيهم ويأسرون لأن أكثرهم مشاة لا يستطيعون الركض بالهزيمة بخلاف الصقر فأنهم كانوا كلهم فرسانًا.

ثم أن ظاهرًا أرسل حالا إلى عكا وإلى كل ولاة بلاده أن يجردوا خيلهم ويرسلوا له كل ذي مروءة ونجدة، وكان جميع أهل البلاد يحبونه لعدله ولخلاصهم على يده

من تعدي العربان وظلم الحكام الأتراك. فاجتمع إليه منهم نحو أربعة آلاف فاشتد بهم ظهره وقام فدخل بهم بلاد النابلسية حتى بلغ جبل نابلس إلى قمته حيث قلعة سانور، وكان محمد الجرار ابن إبراهيم الجرار قفل أبوابها عندما بلغه انكسار قومه وقتل والده. ولما رأى ظاهر مناعتها وأنه يقتضي لحصارها وأخذها زمان طويل تركها واكتفى بان وضع يده على جميع بلادهم الساحلية ورجع عنهم إلى الناصرة فائزًا منصورًا. ووفى بوعده لكنيسة العذراء، فكان يرسل كل عام إلى كهنتها قناطير من الزيت إلى آخر حياته. وقد قاتل أمامه أهل الناصرة حينئذٍ حتى رأى العجائب من بسالتهم. ومن ذلك الوقت صار يحب النصارى لأجلهم وكان هذا سنة ١٧٣٥.

حال البلاد والأولاد

وسنة ١٧٣٦ كانت البلاد براحة واطمئنان والطرق بأمان، بحيث إذا سافرت المرأة وعلى كفها الذهب لا يعترضها أحد في الطريق ولا تخاف على نفسها أمرًا. وكان أولاد ظاهر الذين ذكرناهم قبلًا شبوا وتعلموها وتأدبوا على الشيخ عبد الحليم الشويكي ثم ولد له أولاد غيرهم من نساء تزوجهن بعد ذلك وهم أحمد وصالح وسعد الدين وعباس فوضعهم عند عبد الحليم يؤدبهم ويعلمهم.

وكان ظاهر قد أرسل إلى الشام يسأل عن عبد الغفار هل كان حيًا أم مات؟ وهل له أولاده فأتاه الخبر أنه مات وإن له ولدًا نجيبًا اسمه عبد الحليم قام مقام أبيه وفاقه بالعقل وسعة العلم فأرسل إليه يطلبه إلى عكا، فجاء إليه. وكان حقيقة أوسع علمًا من والده إذ كان عالمًا علامة بالعلوم الشرعية الإسلامية وشاعرًا بارعًا بالنظم، فأكرمه ظاهر ورتب له معاشًا وافيًا وفوَّض إليه أمر الفتوى في عكا وجميع البلاد التي

في حكمه وجعله مربيًا ومعلمًا لأولاده الآداب العربية(١).

وجعل ظاهر أخاه سعدًا في دير حنا وهي قرية ذات قلعة قديمة وجعل ابنه البكر صليبي في طبرية وابنه عثمان في كفر كنة وابنه عليًا في قلعة صفد ولبث هو مقيمًا في عكا يشرف عليهم ويرجعون إليه في كل أمرٍ جليل.

مطاولة وسياسة تركية

وكان مشايخ جبل نابلس يرجع أمرهم إلى أميرهم المتولي قلعة سانور وهو محمد الجرار. وبيت الجرار يرجع أمرهم إلى بيت قديم اسمه بيت طوقان وهم من سلالة باشا كان قديما في الشام. وبيت طوقان كانوا متولين البلاد من قبل الدولة لأن جبل نابلس ملك خاص لها مثل يافا ولهم لقب بيكاوات وكانوا يرسلون مال جبلهم المقرر من قديم الزمان خمسمائة كيس إلى باشا الشام وهو يرسله إلى الدولة.

ولما فعل معهم ظاهر ما تقدم عمل بنو طوقان ومشايخ البلاد محضرًا وكتبوا عرضًا إلى سليمان باشا بما عمله ظاهر معهم من الاعتداء عليهم واستغاثوا به وترجوه أن ينصفهم منه فأتاهم جواب الباشا أن اعملوا الصلح معه، وطاولوه في ذلك إلى أن يعرض للدولة أمره.

فأرسل محمد الجرار وكاتب ظاهرًا في أمر الصلح فصالحه ظاهر على ألَّا يتعدى أحد منهم على أحد في الناصرة وأن المرج وحيفا والطيرة والطنطورة التي أخذها

(١) وعلى يد الشيخ المذكور تعلم المؤلف مخايل الصباغ الصرف والنحو كما صرح بذلك في غير هذا المحل. ومن تلاميذ هذا الشيخ مخائيل البحري الشاعر المشهور في عصره والد حنا بك البحري وعبود [illegible]

منهم قبل الحرب يتنازلون له عنها وهو يترك لهم البلاد التي في جوار جبلهم وأن يدفعوا له مقابل ذلك ما صرفه في حربه لهم واتفقوا على أن يكون هذا خمسمائة كيس فدفعوها له وترك لهم بلادهم وعاد مستقرًا بحاله كما كان.

ثم إن محمد باشا وزير صيدا وهو من بيت العظم قريب لسليمان باشا لما رأى أن ظاهرًا غلبه على أكثر البلاد التي في ولايته وتولاها هو ومنع عنه العوائد التي كانت ترد عليه من ولاتها ولم يعد يصل إليه إلا المال الميري السلطاني المقرر عليها ولا يقدر أن يقاويه وعلم أن النابلسية أرسلوا استغاثوا بنسيبه باشا الشام فكتب هو له أيضا يستعين به على ظاهر فأتاه الجواب منه مثل جواب النابلسية أن يطاوله في الأمر ويتأنى إلى أن يحضر له الجواب من الدولة.

نظام الأحوال

فانتظمت حينئذٍ لظاهر الأمور وصفت له البلاد ورتب أحواله في عكا ونظمها، وكان حينما كان في طبرية قد تعرف برجل تاجر من عكا اسمه يوسف القسيس من جماعة الملكيين فكان ظاهر يرسل يطلب منه بعض حاجاته من ملبوس وغيره وفي آخر السنة كان يمضي التاجر إليه وبيده بعض الهدايا فيحاسبه ويقبض ما له عنده ويرجع إلى عكا فخف الرجل على قلب ظاهر وأحبه، وفي سنة ١٧٣٩ جعله وزيرًا له وسلمه جميع أموره وكان يوسف من الرأي والعقل والفطنة والأمانة والديانة والاستقامة على غاية الكفاية وقام بأمر ظاهر كما يجب.

وفي أثناء ذلك زوّج ظاهر أولاده صليبي وعثمان وعلي وسعيد من بنات ولاة البلاد التي قد استولى عليها وكان ذلك دهاءً منه وحذرًا من أن يتذكر أحدهم حلاوة ولايته السابقة ويستفرص بعض غياباته عن عكا ويسطوا عليه ويستولي عليها مرة

ثانية وكان على مثل اليقين بأن رجال الدولة لا يتركونه هكذا ومن ثم كان دائمًا مستعدًا ومتأهبًا لكل أمرٍ.

الصلح سيد الحكام

وكان عرب الصقر من بعد ظهور خيانتهم باتفاقهم مع النابلسية خافوا على نفوسهم وما زالوا في هزيمتهم إلى أن خرجوا من بلاده ودخلوا حدود قيسارية يافا وإذ كان كذلك خائفًا من غدر ومكر رجال الدولة أرسل بالسر كتابًا إلى أم الأمير قعدان صهر رشيد الجبر -وكان لها قول وسطوة في قومها لا يخالفون كلمتها لحسن رأيها وحزمها وعقلها- يذكر لها فيه عظم خيانة قومها وأنه لحسن سريرته مسامح لهم عن جريرتهم بشرط أنهم من ذواتهم يطلبون سماحه ويسألونه رضاه عنهم ويجددون له يمينهم بأن لا يعودوا إلى مثلها وأن يكونوا معه كما كانوا من قبل في ولاء ومحبة ثم وعدها خيرًا إن فعلت ذلك.

فلما وصلها كتاب ظاهر عملت بما فيه وجعلت تشكو لهم الفرقة والغربة وتشتيت أمرهم في البلاد. فقال لها رشيد الجبر: وما الحيلة؟

فقالت له: إن الأمر سهل وأنتم تعلمون أن ظاهرًا قلبه صافٍ، فأرسلوا اطلبوا سماحه واسألوه العفو عما صدر منكم، وذكِّروه معروفكم وقيامكم بشأنه. فوالله إذا وصله ذلك منكم لا يرجع رسولكم إلا بمطلوبكم. ففعلوا ذلك. فسامحهم ظاهر. ورجعوا إلى منزلتهم بين جبل نابلس والناصرة. ثم ذهب رشيد الجبر ومشايخه لزيارته. فقبلهم وقابلهم كل إكرام وخلع عليهم، وقال لهم: بعد سماحي لكم لا ينبغي أن أعاتبكم عما صدر منكم غير أني أحذركم أن تعودوا إلى مثلها ثم رد لهم أراضيهم التي كان قد استولى عليها وأقطعهم بجوارها مقدار نصفها فرجعوا إليها

واستقروا فيها بأمان وسلام.

العدل والأمان العام

فصارت حينئذٍ جميع البلاد في هدوءٍ وسلام وكانت الطرقات بأمان تام وسلام، حتى إنه أرسل في آخر سنة ١٧٤١ امرأة جميلة الشكل من البصة لابسة حليها. وبعد أن طافت البلاد عادت إليه وأخبرته عمن اعترضها في الطريق، وهما اثنان، الأول أحد المغاربة سألها إذ وجدها بمفردها أين قاصدة، فأحضره ظاهر وأمر به فشُنق خارج عكا أمام البوابة وقال له هذا جزاء من يعترض أبناء السبيل. والثاني أحد عرب الصقر اعترضها في الطريق قرب الناصرة فأحضره إليه وقال له يا ابن الفاحشة أما نهيتكم مرارًا عن اعتراض أبناء السبيل في البلاد التي في حكمي. ثم أمر به فشنق وكان هذا دأبه مع الجميع.

ثم نبه على التجار والمتسببين من أصحاب المهن والصنائع بأنه إذا اشترى أو أخذ أحد شيئًا منهم نسيئة ولم يدفع الشاري ثمن ذلك يجب على البائع أن يحضر إليه ويعرّفه عن خصمه وهو يدفع له ثمن بضاعته ويتولى هو أمر الخصم. وكان يقصد بذلك منع ما كان يفعله النابلسية مع أهل الناصرة كما تقدم.

ثم أمر كل ولاة البلاد إذا وجدوا فلاحًا لا يقدر أن يزرع لقلة ما في يده يجب أن يقرضوه إلى أن يتسع حاله. واقرض البعض من تجار عكا والناصرة مالًا بغير فائدة ليوسعوا بذلك تجارتهم.

ومنع ولاة البلاد أن يأخذوا شيئًا من أهل البلاد زيادة عن مال الميري المقرر لهم وأقسم بأن من سمع عنه أنه أخذ رشوة ولو نصف الفرد من الفلاح فلا يسأل إلا

رأسه ولا تُقبل منه معذرة ولو كان والده.

وكانت عادة البلاد في دفع الميري أن يعطوا الحاكم في السنة المخصبة ربع الحاصل من الغلة وإلا فالخمس. فلما دخلت سنة ١٧٤٣ وكانت مخصبة جدًّا أمر جميع الولاة أن يأخذوا من الفلاحين الخمس فقط وقال لهم: متى أخصب الفلاح أخصبت أرضه وأخصبت البلاد كلها معه. وقد طالما ظُلم الفلاحون من قل وكفاني غنى أن أراهم أغنياء في بلادي فاستغنى الفلاحون في تلك السنة واغتبطوا به جدًّا.

ثم خفر طريق كل بلدٍ بواليها وعرّف ولاة البلاد بأن كل عابر سبيل إذا نُهب في الطريق فوالي البلد التي يكون فيها تلك الطريق يكون غارمًا لما سُلب وضامنًا له وهو يخرج من حقه ولا يكون المسئول عن ذلك إلا الوالي.

نوادر

ونظر يومًا من طاقة قصره فرأى امرأة جميلة كلما مال نظره إلى ناحيتها فتحت طاقة منزلها ليراها ويعلقها فأرسل دعا رجلها، وكان مسلمًا، فقال له: من أين أنت؟ فقال له: من عكا. فقال له: من أين متزوج؟ فأجاب: من أهلي. فقال له ظاهر: حاشا أن يكون أهلك من عكا، وأن أعرف أهل عكا، كلهم بعدوا عن كل شين. فأصدقني ممن أهلك؟

أجاب الرجل: من أهلي لكنهم ولدوا وتربوا في الشام. فقال ظاهر: هو ذلك. ثم قال له: وحياة رأسي يا رجل ليس لك إقامة في عكا أكثر من أربع وعشرين ساعة مهلة لتجهز فيها حالك وتخرج من بلادي إلى أي بلد شئت لأن امرأة واحدة فيها كافية لأن تفسد ألوفًا. ومضى الرجل وجهز أمره وخرج بامرأته من عكا.

وطاف ظاهر في هذه السنة وحده في أزقة عكا فوجد فيها إنسانًا عريانًا والقوم يقبلون يديه تبركًا. فسأل ظاهر أحدهم وقال له: من هذا؟ فأجاب الرجل: هذا ولي. فرجع ظاهر إلى قصره وأرسل دعا القاضي والإمام وبعض أشراف عكا ثم أحضر العريان. والتفت إلى القاضي وقال له: في أي سورة من القرآن الشريف أو في أي حديث أجازوا كشف العورة والمشي في الأسواق هكذا؟

فقال له القاضي: الأمر بالخلاف فإنهم منعوا كشف العورة وأمروا بسترها. ولكن هذا وليٌّ مسلوب العقل.

فقال له ظاهر: أيعلم المسلوب الماضي أو يدري الآتي؟ قال القاضي له: لا.

فقام ظاهر من مجلسه وهو مجرّد سيفه وأتى العريان ومسكه بيده وقال له: وحياة رأسي إذا لم تصدقني فيما أسألك ضربت عنقك حالًا. أمس ماذا كان؟

أجاب العريان: الخميس.

ثم قال له ظاهر: وغدًا ماذا يكون؟

أجاب: السبت.

فالتفت ظاهر إلى القاضي وقال له: أيعلم مسلوب العقل هذا.

قال القاضي: لا.

فعند ذلك أمر ظاهر، فضرب العريان. وأرسل فنادى في كل بلاده أن كل من يوجد في الطريق بهذه الصورة يُقتل ولا شفاعة له عنده.

وقام يومًا صباحًا فسمع في البلد ضجة قوية فانزعج لها فتسلح وركب باثنين من عبيده ونزل إلى المدينة ليرى الخبر. فوجد قومًا حاملين نعش ميت وهم يركضون في الشوارع ويقولون طار طار يا لعظم آيات الله في أوليائه. فسأل ظاهر ما هذا؟ فقيل له أن الشيخ الفقفي مات ونحن آخذون له إلى القبر بعد ان غسلناه وكفناه وصلينا عليه فهو يطير منا لأنه ولي.

فاستل ظاهر سيفه ودخل بين القوم وأمر حاملي النعش أن يضعوه، فوضعوه. ثم التفت إلى القوم وقال لهم: يا أعداء الله، أهذه خزعبلاتكم وكذبكم على الله وأوليائه؟ أروني طيران وليكم وكيف يجوز لكم أن تجعلوا بدين الله ومذهبه كذبًا وزورًا فاقسم بالله ورسوله أن عملتم مثلها لأحرق ميتكم وأقتل أتباع نعشه ثم أمر بعض رجاله أن يحملوا الميت ويمضوا به ويدفنوه.

الحرب خدعة

ثم دخلت سنة ١٧٤٣ فبلغه أن سليمان باشا أرسل إلى جميع بلاده يجيش عليه وقد أتاه فرمان من الدولة يبيح له أن يغزوه فقلق لذلك ظاهر وأرسل حصن طبرية التحصين الكافي وأفعمها بالذخائر. وفي شهر ربيع الآخر بلغه أن سليمان باشا خرج للدورة[1] ومعه من العساكر ما يزيد عن ستين ألفًا فتحقق بذلك حينئذ أنه قاصد له. وقال إن الدورة لا تحتاج إلى هذه العساكر الكثيرة وقام حالًا من عكا وأقام نائبًا فيها مكانه ابن أحمد الحسين وجاء إلى طبرية وأرسل أحضر عياله وأولاده وأخاه سعدًا.

ثم إن سليمان باشا جاء إلى صور واتاه محمد باشا من صيدا واجتمعا فيها وأتيا

(١) المراد بالدورة والدور خروج الوزير من دمشق لجمع المال السلطاني من سناجق البلاد التابعة للشام مثل حوران ونابلس

إلى طبرية وحاصراها وضيقا عليها جدًا وطال الحصار عليها أكثر من ستة أشهر حتى دخلت سنة ١٧٥٤ وضجر ظاهر من ذلك فشاور بذلك أخاه سعدًا وكان هذا كما ذكرنا ذا رأي مصيب وقلب من حديد لا يهاب الموت.

فقال له سعد نُظهر أننا تخاصمنا وأخرج من عندك كأني هربت وكأنك أردت قتلي لخيانة اطلعت عليها مني. ومتى خرجت من عندك أمضي إلى سليمان باشا وإن شاء الله سأكفيك شره. واتفقا على ذلك.

وبعد يومين خرج سعد مغاضبًا لظاهر أمام القوم وأتى إلى سليمان باشا وطلب مقابلته وأخبره أنه تخاصم مع ظاهر؛ لأنه أشار عليه بالخروج إليه والطاعة له وأنه قال له أن سليمان باشا سيقف سلطاني لا يعارض ولا يدافع وأن الأولى الدخول في طاعته والامتثال لأوامره. ولما رأيته ذا رأس يابس لا يقبل نصيحتي عزمت أن أفتح باب القلعة ليلًا وأخرج فوشي بي إليه ابن عمي محمد العلي وأراد ظاهر قتلي انتقامًا، فهربت من طاقة القلعة. وأتيتك يا مولاي مسلمًا طالبًا عفوك وإن شاء الله سأكفيك أمر أخي ولا أحوجك لكثير.

وكان سعد ملسانًا داهية فترحب به الباشا وأكرمه وصدقه واغتر به حتى رتبه من جملة مشيريه في تدبير أمر الحصار.

وأخذ سعد يريهم أراءً صائبة فيما هم فيه، وفتح كفه وعم بكرمه حاشية الباشا. وكان للباشا كتخدا كرجي الأصل اسمه عثمان فهاداه وتداخل معه وأظهر له الود. وكان يمزج مكالمته مع الباشا وحاشيته بالمزاح ويباسطهم هازئًا بأخيه شاكيًا لهم من كبره وغروره إلى أن علقوه جميعهم وأخذت محبته بمجامع قلوبهم، حتى إن الباشا ما كان يدعه يغيب عنه ساعة.

واتفق أن في شهر ربيع الأول من هذه السنة أراد الباشا الدخول إلى الحمام وكان صبيحة ذلك اليوم جالسًا سعد عنده وكان قد ضجر مما هو فيه من طول الحصار من دون جدوى فاغتاظ وجعل يقول لسعد بغضب: إن شاء الله في هذين اليومين ادفع جميع عساكري ونزحف كلنا يدًا واحدة على القلعة ونهدمها ونمحيها من الوجود ولو قتلنا جميعا وأجعل هذا الكلب ظاهرًا عبرة في العالم ولا أدع من رجاله أحدًا إلا قتلته. أيدافع هذا الكافر سيف السلطان؟ ومن هو حتى يمتنع عن الأمر السلطاني؟ وأطال الكلام بمثل هذا. فسكت سعد إلى أن انتهى فقال له:

يا مولاي أن أمورًا مثل هذه لا تؤخذ إلا بالتأني وخصوصًا الحصار. وظاهر صعب شديد العزم وطبرية حصينة. ومع هذا أنا أعلم أنك تأخذ القلعة منه حسب قولك إذا زحفت عليها بعسكرك. غير أني أعلم أنه يمكن أن يُقتل نصف عسكرك، والصواب أن توفر دمهم وتحفظ حياتهم. ولا بد أن تأخذها بالتأني والصبر من غير سفك دم. وقد افتكرت إن شئت أن أمضي إلى ظاهر وأكلمه وأهدده. وأن أبى إلا العصيان أعده على لسانك بالخير إذا نزل على أمرك بأن تبقيه على ولايته وبلاده وتحضر له عفو السلطان ولا أزال به حتى آتيك به طائعًا. ومتى أتاك فأنت وشأنك معه.

فقال له الباشا: رأيك مناسب وصواب.

فقال له سعد: أعطني أذنك خطًا لأمضي إليه دفعًا لكل معارضة.

فأعطاه خطًا وأخذه وهمّ أن يذهب. فقال له الباشا تعال معي إلى الحمام وحينما تخرج تذهب. فقام الباشا ودخل الحمام فدخل معه سعد وما لبث حتى خرج سريعًا معتذرًا أن الحمام يؤذيه ويضره وليس من عادته الحمام ولذلك أخذ عليه وجلس

خارجًا عند الشرابجي. وكان هذا يهيئ الشربات حتى إذا خرج الباشا من الحمام يشربها. وبينما هو جالس اقتضى أن يدخل الشرابجي على الباشا ليستأذنه في أمر. استفرص ذلك سعد ووضع في الكأس سمًا ولبث مكانه إلى أن خرج الباشا وشرب الكأس. فعند ذلك قام سعد واستأذن وذهب إلى ظاهر ودخل عليه وأخبره بما فعل. وقال له: قم واخرج ليلًا من منفذ الماء من وراء القلعة وأنا والمغاربة وأهل بيتنا معك. ونكبسهم في معسكرهم وما يطلع الفجر حتى نأتي عليهم، إذ هم في غفلة. والباشا لا يأتي عليه نصف الليل.

فاستعدوا لذلك ثم خرجوا -وقيل كانوا نحو خمسمائة وقيل ألفين- فهجموا على العسكر وكان الباشا قد مات وشاع خبر موته في جميع العسكر. فوقع الرعب فيهم والقلق وجعلوا يقتلون بعضهم وما طلع الفجر حتى لم يبق أحد في المعسكر والأرض مستورة بالدم والقتلى. فأرسل ظاهر خيالة الصقر تتبع المهزومين وكل من أدركوه أتوا عليه قتلًا وأخذوا ما كان معه. والغاية ما نفذ عثمان كتخدا الباشا ومحمد باشا إلا بكل شقاء وعذاب.

أخبرني أحد شيوخ زماننا قال: كنت مع محمد العلي في القلعة. فخرجنا بعد نصف الليل بقليل ووقف ظاهر قرب القلعة. وتقدم محمد العلي وجعل نصفنا عن يمينه ونصفنا الآخر عن شماله. وكان كل منا معه بندقية وزوج طبنجات وأمرنا جميع الذين على الشمال أن نطلق البنادق أولا بطلق متواصل منظم بين كل طلقة مقدار قراءة الفاتحة. ثم بعد ذلك الذين عن يمينه، وبعد ذلك الطبنجات التي على الشمال. ثم التي على اليمين إلى آخر السلاح. وما زلنا على ذلك إلى أن قربنا من معسكر الباشا. وكانوا نيامًا وبيننا وبينهم أصابة طبنجة. فأمرنا أن نطلق البنادق فما نظرنا إلا عسكر الباشا قام في صرخة وضجة عظيمة. وهذا يعلو ذاك وهذا يسرع إلى سلاحه

وهذا يركب فرس ذاك عريانًا. وبعد أن أطلقنا الطبنجات أولًا وثانيًا أمرنا أن نقف وأن نملي سلاحنا، فوقفنا وأبصرنا القوم يطلقون بنادقهم في بعضهم ولهم ضجيج وصريخ مثل يوم القيامة، وهذا يسرع راكضًا من جهة وذاك من ناحية غيرها، ودخان البارود يظللهم مثل الغمام. ولبثنا واقفين مقدار نصف ساعة والقوم على ما هم عليه حتى لاح الفجر. فتقدم محمد العلي وأمرنا بتفريغ السلاح كالأول، ففعلنا. فترك القوم أموالهم وأمتعتهم، وكثيرون منهم خيلهم ودوابهم، وساروا على وجوههم ثم أتينا على الجميع. وبعد نصف ساعة وقد طلع النهار رأينا عرب الصقر مرت بنا ركضًا تابعة المهزومين من القوم. ثم تقدم ظاهر فتلقاه محمد العلي وهنأه بالنصر، حيث لم يُقتل أحد من رجاله إلا اثنين جرحا الواحد من المغاربة والآخر من طبرية. ولما تقدم محمد العلي أمام ظاهر ليهنئه وكان على ظاهر كرك سمور نزعه عن كتفه ووضعه بيده على محمد العلي ثم حازوا جميع عرضي سليمان باشا وخزنته وأمتعته وجمعوا جميع الأسلاب. وفرّق منها ظاهر قسمًا على أقاربه وأتباعه. وهنئوا بعضهم بعضًا وفرحوا بانتصارهم وسرت البلاد معهم. وأرسل ظاهر إلى صيدا فطرد نائب محمد باشا وتولاها هو. وعاد إلى عكا وكتب محضرًا من مشايخ البلاد والقاضي والعلماء أن البلاد كانت من محمد باشا ابن العظم في ظلم شديد وكانت من الحرامية وقطاع الطريق في شدة خلصهم منها ظاهر وأنهم صاروا بأمان عظيم داعين السلطان ويسترحمون أن يقرر ظاهرًا على ولاية صيدا. وأرسل ظاهر للدولة هدية مع ميرة البلاد عن السنين التي مرت. فأرسلت الدولة تقول له: إن شئت ذلك فأرسل الثلاثة آلاف كيس التي سلبتها من جبل نابلس. لأن سليمان باشا بلغ الدولة أن ظاهرًا استولى على مال جبل نابلس عن ست سنين. فأرسل ظاهر إلى محمد الجرار أمير جبل نابلس أخذ شهادة منه ومن المشايخ النابلسية أن ظاهرًا ما أخذ درهمًا ظلمًا ولا استولى على ميرة البلاد في كل المدة التي تولى فيها بلادهم. وإنما أخذ من كل بلد

مئونة عسكره في تلك السنة إلى أن وقع الصلح بينه وبين أميرها على أن يعطيه ما أعطاه جوامك العسكر. فلما وصلت هذه المكاتيب إلى الدولة وعرفوا براءته أرسلوا له تقرير صيدا والإقطاع التي كانت في يده من البلاد.

وأما عثمان كتخدا سليمان باشا فلما وصل إلى الشام وضع يده على جميع أموال سيده ومنعها عن أولاده وأقاربه وضبط جميع أمتعته. وكتب للدولة بذلك ومن ثم نال ثقتها بضبطه ذلك فجعلته في مكان مولاه باشا الشام وبقي لقبه عليه عثمان باشا الوكيل. وأمرته أن يقتل محمد باشا صيدا أو أن يترصد الأمور لظاهر ومتى أمكنته الفرصة يغتاله. لكن كان ظاهر قد أقام له بعض العيون لدى باب الدولة فأخبروه عن ذلك وأخذ حذره[1].

---

(١) لا يخلو كلام المؤلف في هذا الفصل من الوهم والخطأ لا بد لنا من بيانه فإن سليمان باشا تولى دمشق مرتين الأولى من سنة ١١٤٦ هجرية إلى سنة ١١٥١ متنقلًا إليها من صيدا (من سنة ١٧٣٣ مسيحية إلى سنة ١٧٣٨) وفي سنة ١٧٣٧ سار لقتال ظاهر وحاصره في طبرية من دون طائل كما ذكر هذا الخوري مخائيل بريك وبوكوك (Pococke) الإنكليزي الذي زار طبرية في تلك السنة وشاهد ظاهر العمر آخذًا في تحصينها ليصد عنها وزير الشام.

والمرة الثانية من سنة ١١٥٤ هجرية عائدا إليها من مصر إلى أن مات في طبرية سنة ١١٥٧ (١٧٤١ إلى ١٧٤٤م) وخلفه أسعد باشا ابن أخيه إسماعيل الذي لبث فيها أربع عشرة سنة بنوع لم يسبقه إليه أحد من وزراء الأتراك وقد جمع أموالًا غزيرة وبنى في دمشق وحماه وغيرها بنايات عظيمة لم يكن لها مثيل في الشرق ومنها دار بيت العظم المشهورة في دمشق التي اشتراها الفرنسيون وجعلوها دار العاديات ويقربها خان أسعد باشا الذي ليس له نظير في الشام بسعته وجمال هندسته وإتقان بنيانه.

وعثمان باشا المذكور كان كتخدا أو وكيل لأسعد باشا المذكور الذي استولت الدولة على جميع أمواله وأملاكه بعد عزله وقتله غدرًا سنة ١٥٦ طمعًا بأمواله وأملاكه التي ضبطتها كلها بواسطة مملوكه ووكيله عثمان باشا. ومكافأة له على ذلك جعلته مكانه في دمشق سنة ١٧٦٠ مع لقب الصادق على ما هو محقق تاريخيًا. ولا يُحفل بما جاء مخالفًا لهذا في تاريخ الأمير حيدر ومن نقل عنه مثل طنوس الشدياق فإنه خلط كثيرًا بين أفراد بيت العظم الذين تولوا في ذلك الزمان الوزارة في دمشق

الفتن والحسد بين الأقارب

وفي هذا العام سنة ١٧٥٥ دخل الحسد في قلب سعد من أخيه ظاهر بما صار إليه من أمر البلاد. فأراد الخروج عليه وكاتب في ذلك عرب الصقر فأجابوه لمراده. ثم أن عثمان كان أبوه قد اغتاظ عليه لأنه طلب من سحماتا امرأة نصرانية لتكون مرضعًا لولده. ولما صارت في بيته أخذ يراودها عن نفسها. ونساء تلك البلاد في غاية العفاف أحرار لا يعرفن القبيح. وحين رأت ذلك هربت ورجعت إلى زوجها وأخبرته بذلك وبما أن هذه الواقعة غريبة اخذ الناس يتناقلونها حتى شاعت في البلاد واتصلت إلى ظاهر.

فلما سمع ذلك عن ابنه دعاه إليه ووبخه وغضب عليه وقال له: «كيف تفعل هذا وأنا افتخر بصيانتي نساء البلاد من القبيح! أتريد أن تخفض شرفي؟ لا والله، فأكون بريئًا من عمر إن عدت إلى مثلها وما جعلتُ الكلاب تعلق دمك. أأقيمك

الدين باشا العظم في طبرية». لأن سعد الدين المذكور ابن إسماعيل وأخا أسعد وإبراهيم بقي حيًّا إلى سنة ١٧٦١ يتقلب في منصب الوزارة بين طرابلس وصيدا وحلب ومرعش وقونية والرقة وبغداد. وليس له ذكر مطلقا بين وزراء الشام إلا في كتاب الأمير حيدر وأتباعه أو من نقل عنه.

قال الخوري مخائيل بريك الدمشقي وهو شاهد عيان: «في سنة ١١٥٤ توجهت (وزارة) دمشق ثانيا على سليمان باشا ابن العظم واستقام ثلاث سنين. وفي هذه المدة (سنة ١٧٤٤) ركب على ظاهر العمر في طبرية وما انتفع بشيء... ثم ركب عليه ثانيا في طبرية وهناك مات. وقيل مات مسمومًا وجابوه إلى الشام مائت محمّل ودفنوه في دمشق. ياحيف عليه يموت! ثم في هذه السنة ١١٥٧ أخذ ظاهر العمر مدينة عكا وعمرها قلعة (ذات أسوار) وسكن فيها وصار له صيت ذائع بكرمه وشجاعته وسلوك الدروب وصار أمان في زمانه وكان محبًّا للنصارى».

راجع فولنيه صفحة ٢ من المجلد الثاني من أسفار رحلته فإنه يعزز رواية بريك ويخالف رواية الأمير حيدر فقوله إذًا في أول هذا الفصل سنة ١٧٥٣ [illegible] ١٧٤٣ و١٧٤٤

راعيًا فتكون ذئبًا؟».

فتلطف به عثمان واسترضاه وأذن له أن يرجع إلى ولايته. فمضى عثمان وفي نفسه أشياء من أبيه فانتهز سعد هذه الفرصة واجتمع بعثمان ليكتسبه ويقوم معه على أبيه. فأجابه عثمان إلى ذلك واتفقا على أن يسلخا عن ظاهر محمد العلي، وأخذ سعد على نفسه أن يراسله، لأنه كان عمدة ظاهر وساعده لكنه عدل عن الكتابة لئلا يمسك خطه حجة عليه إذا لم يوافقهما ويتفق معهما. فاقتضى رأيهما أن يجتمعا به. فأرسل سعد ودعا محمد العلي إلى منزله وأن يكون مجيئه بالسر عن ظاهر.

فلما وصل الكتاب إلى محمد العلي وقرأه، وكان هذا زينة بني زيدان بحسن طباعه وسعة نظره وسداد رأيه كما ذكرنا، فقال في نفسه: لماذا يقول بالسر عن ظاهر؟ أن في هذا شركًا، فإن تكن هناك خيانة فغير ممكن ألا تظهر، وإن لم تكن خيانة فلماذا أكتمها عن ظاهر؟ ومن ثم استصوب أن يعرّف ظاهرًا بذلك ويستأذنه بالسفر. فدخل عليه سرًا وأراه الكتاب واستأذنه فانزعج ظاهر من ذلك. فقال له محمد العلي: لا تفتكر يا شيخ بشيء ولا تظن إلا الخير، فقد عاهدتك من قبل بعهد الله وإن تكن هناك خيانة -ولا أظنها تكون من أخيك- كفيتك أمرها وإلا أخبرتك عن الداعي. فطلب ظاهر منه أن يجد له اليمين فحلف له ومضى إلى سعد.

فاخبره سعد بمراده وأن ظاهرًا قد عتى وتجبر وتكبر وأخذه الغرور، مع أنه ما تأيد وما قام له أمرٌ إلا بهم. وأنه قليل الخير لأهله، محب لنفسه، وأنه يكرم الإنسان عند احتياجه إليه ومتى نال مراده منه يعطيه جانبه، لا يرى من أهله أحدًا فاق وارتفع إلا أذله ونكّس رأسه، وهو في جزء من الدولة، فكيف إذا أمن جانبها! وما زال في مثل هذا الكلام معه ليبغضه بظاهر. فقال له محمد العلي: وما المقصود؟

قال له سعد: إذا أغتلنا ظاهرًا وتوليت أنا البلاد يكون زمامها في يدك وأن أسلمها لك طوعًا.

فقال له محمد العلي: أن أجبتك إلى مرادك فليس معي وثيقة منك في وعدك هذا.

فقال له سعد: أنا أحلف لك على ذلك، ومعي عثمان يحلف لك، ويشهد علينا بذلك أمير الصقر رشيد الجبر وشيوخهم.

فقال له محمد العلي: اليمين زمام الحر يقتاده الله به، وإنما زمام الشرع الكتابة.

فقال له سعد: أنا أعطيك كتابة بذلك أيضا.

فأجابه محمد العلي كفيتني بذلك كل أمر.

وكتب له سعد كتابًا ليكون حجة ليعه بأنه إذا قام باغتيال ظاهر يكون أمر البلاد وتدبيرها بيده. وأنه هو يكتفي بالاسم فقط أو بقلعته. فأخذ منه محمد العلي كتابته وقال له: لا ينبغي أن تعمل في سبيل ذلك شيئًا ولا تكلف نفسك أمرًا إلا أن تستريح في منزلك، وأخذ على نفسه عمل كل شيء، ووعده بأنه يعلمه بكل شيء.

ثم ذهب محمد العلي إلى ظاهر وأخبره بالأمر. فقال له ظاهر: ومن ذا يثبت كلامك أو يحققه؟

فقال له محمد العلي: أنا عرفت أنك ستقول لي هذا ولذلك تحايلت حتى أخذت منه كتابة وهذه هي. فأخذها ظاهر وقرأها ورماها في الأرض مغضبًا. وقال: ما عاد لي ثقة بأحد، حتى أخي وشقيقي وأبي في التربية والقائم بأمري ولا بولدي أيضا! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال له محمد العلي: والله يا شيخ ليست القرابة مقياس الإخلاص في الحب، فكم أخ لك لم تلده أمك.

فقال له: وما الرأي إذًا؟

أجاب محمد العلي: لا ينبغي أن تكلف نفسك القيام من مكانك بل أرسل ادعُ ابنك عثمان وترحب به جدًّا حتى يزول من باله أثر ما سبق منه وافض إليه بسرك بأنك لمحت من أخيك سعد خيانة وأنك تريد اغتياله وتفوض ذلك إليه بحيث لا يشعر أنك عرفت شيئًا من أمر اتفاقه معه ونخيه ورِّجه وعده الوعد الجميل. ففعل ذلك ظاهر.

فلما سمع عثمان من أبيه أنه واقف على خيانة سعد خاف أن يعرف باتفاقه معه عليه حتى بان أثر ذلك في وجهه ونظره فتغابى ظاهر عن ذلك، وما ذكر له شيئًا من ذلك لا تصريحا ولا تلميحا، بل وعده انه إذا اغتال عمه سعدًا يعطيه شفاعمرو فاعطاه عثمان القول بهذا. وذهب إلى عمه سعد كانه زائر له ولكي يتداول معه بأمر الخروج على ظاهر. والعادة في تلك البلاد بين أكابرها ومشايخها انه إذا حضر إلى عند الرجل ضيف عزيز لا ينام تلك الليلة في حرمه بل ينام مع الضيف في مكان واحد ويضع فراشه أمام فراشه فيكون له أنسًا في الليل إذا استيقظ من نومه.

فترحب سعد بعثمان كثيرا ثم أخذا يتداولان في أمر القيام على ظاهر إلى أن طالت السهرة وانتهى الكلام. فقام سعد وعثمان وعبد الخير، كل إلى فراشه ليناموا. وتناوم عثمان وعبد الخير خادمه إلى أن تحقق نوم سعد، فقاما عليه وخنقاه، وفتحا الباب بلطفٍ وذهب عثمان إلى ظاهر فأخبره بذلك فأشاع ظاهر أن قد أتاه خبر موت سعد ملسوعًا من حية. فأقام العزاء شهرًا حزنًا عليه واستولى على دير حنا وأعطاه

لابن أحمد. فذهب احمد وتولاه وتقرب إلى عرب تلك الناحية، وهم عرب الصبيح وتقوى بهم. ثم مضى فغزا بلاد أربد وأخلاها ثم ناحية من حوران وحصن عجلون.

وقد اختلف شيوخ زماننا في رواية قتل سعد فالبعض قالوا ما تقدم والبعض قالوا أن ظاهرًا دعا إليه سعدًا وحبسه في بير الدم ومنع عنه الطعام حتى مات والرواية الأولى أرجح.

وعد بلا وفاء سبب فتنة وعداء

دخلت سنة ١٧٥٧ وأراد ظاهر أن يفي لابنه عثمان بوعده بأن يعطيه شفاعمرو. فتوسل إليه أهلها أن لا يسلمها لعثمان وقالوا له أننا نختار الموت على الحياة مع عثمان لما شاع عنه من القبيح. وكان ظاهر يراعي خاطر أهل البلاد ويلين قلبه لهم. فعوّض على عثمان بشيء آخر وما ذكر له علة ذلك لئلا يقع منه مكروه في أهل شفاعمرو انتقامًا منهم ولبث عثمان بمكانه غير راضٍ من أبيه.

مرض ظاهر وشفاؤه منه على يد الصباغ

وفي هذه السنة مرض ظاهر مرضًا ثقيلًا أشرف به على الموت وكان حكيمه رجلًا من عكا اسمه سليمان صوان. ولما آيس من شفائه خاف على نفسه إذا مات أن يحسبه الزيادنة أن موته كان بذنب أو تقصير منه فأرسل دعا إليه إبراهيم الصباغ وكلفه أن يعالجه. كما نذكر ذلك مفصلًا في تاريخ إبراهيم. وقيل أن يوسف القسيس وزير ظاهر حينئذ كان من الملكيين الكاثوليكيين وكان سليمان من الغير الكاثوليك. وكان يوسف يخاف أن يسعى به سليمان صوان لدى ظاهر ويؤذيه بغضةً وتعصبًا لدينه.

ولما رأى أن سليمان قد عجز وآيس من شفاء ظاهر أرسل أحضر إبراهيم الصباغ وطلب منه أن يضع يده بعلاجه ووعده بأنه إذا شفاه يجعله مكان سليمان حكيمًا لظاهر. فوضع إبراهيم يده بعلاجه وشفاه. ولما تعافى ظاهر من مرضه أنعم على إبراهيم وخلع عليه وأبعد سليمان صوان وجعله مكانه حكيمًا له.

إبراهيم وزير مكان يوسف

ثم إن يوسف القسيس وزير ظاهر ما زال ثقة ظاهر وموفقًا في كل أمر من أعماله حتى صار في غنى وذا ثروة عظيمة يحسده عليها أعداؤه وأخذ يخاف على نفسه من تقلبات الأيام. وقد رأى أولاد ظاهر قد طمعوا كثيرًا بوالدهم وهموا أن يجعلوه مأكلًا لهم ولذلك عزم أن يهرب سرًّا من عكا وينجو بماله ونفسه. فشحن مركبين من أمتعته وأرسلهما إلى مالطة. واتفق أن امرأته أسرَّت بذلك إلى امرأة من صواحبها. وهذه أسرّت به إلى رجلها حتى بلغ ذلك إلى أحد عيون ظاهر فأنهاه إليه. وتربص ظاهر حتى بحث عن حقيقة الخبر. ولما وجده صدقًا أرسل قبض على يوسف وألقاه في السجن وضبط بيته وجميع أمواله وأملاكه، ثم أحضر إبراهيم الصباغ وجعله في مكانه وزيرًا له. فتولى إبراهيم وظيفته مكرهًا على قبولها ثم شفع بيوسف حتى خرج من السجن ودفع مبلغًا من المال لظاهر فدى به نفسه. وما لبث يوسف لسبب ما نزل به من البؤس والحزن حتى مرض وانتقل إلى رحمة ربه. وكان رجلًا فاضلًا ومسيحيًا كاملًا تقيًا يخاف الله ويحب الفقراء ويحسن إليهم[1]. ومن بعد دفنه أرسل إبراهيم عزى أهله ورتب لهم معاشًا كافيًا.

---

(١) مات يوسف قسيس السلال في شهر أيلول سنة ١٧٧٤ كما يؤخذ من مكتوب الأب جبرائيل الدباس وكيل مطران عكا إلى أخيه الأب [illegible] الدباس في رومة

نهب الحاج

وفيها انتهب الحاج الشامي من العربان وسببه أن للحاج الشامي والمصري عادة أن يدفع للعربان الذين في الطريق أموالًا أو أعطيات مرتبة لهم من أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين. ولما صار أمر الإسلام إلى دولة بني عثمان ساروا عليها وأبقوها كما كانت. وكان العربان في بعض السنين ينهبون الحاج لأن بعض القبائل منهم كانوا يستقلون هذه الأعطيات. ولما صار السلطان إلى سليمان العثماني في القرن السادس عشر أرسل وزيره سنان باشا ليرتب ممالك مصر والشام وبلاد العرب. فأحضر إليه أمراء العربان الذين في طريق الحجين وقرر لهم هذه العوائد والذين كانوا يستقلون أعطياتهم زادها لهم حتى أرضى الجميع. ولكن بعد هذا صار أمير الحاج إذا كان معه عسكر قوي يطمع في العربان ولا يدفع لهم عوائدهم. وإذا طلبوها امتنع عن دفعها ووقع القتال بينهم، فإن انتصر العربان نهبوا الحاج، وإن انتصر هو عليهم ولوا أمامه واستعدوا لقطع الطريق عليه في عودته أو بالسنة التالية حتى ينالوا ما هو مقرر لهم من عوائدهم وعلاوة.

فاتفق في هذه السنة أن عثمان باشا [1] كان مستعدًا لقتال ظاهر وعنده لذلك

---

(١) لم يكن وزير الشام حينئذٍ عثمان باشا بل كان حسين باشا ابن مكي الغزاوي الأصل الذي خلف أسعد باشا وكان من قبل كتخذا عنده وكان معاديًا لظاهر على رواية عبود. وكان أمير الحاج حينئذٍ موسى باشا المعراوي الأصل وزير صيدا. وكان أبوه كذلك كتخذا عند أسعد باشا، وقد اتهم أسعد باشا أنه لسبب عزله عن دمشق أغرى العربان بنهب الحاج وتحقق ذلك، ولهذا صدر الأمر بخنقه في الحمام بعدما صدر الأمر بعدم رفع السلاح عليه وضبطت أمواله وأرزاقه الخ.

قال الخوري مخائيل بريك الدمشقي: «في أوائل سنة ١٧٥٧ عزل من دمشق أسعد باشا ابن العظم الذي كان حكم بدمشق أربعة عشر سنة وتوجه للحجاز أربعة عشرة... وتوجهت عليه حلب، ثم

وهو من ثاني طائفة من أولاد العرب الذين صاروا وزراء في بلادنا. وأول طائفة بيت العظم وأصلهم من معرة حلب أولاد عرب وأولهم إسماعيل باشا والد أسعد باشا المذكور أعلاه. وهذا ابن مكي أصله من غزة والرملة أولاد عرب وأبوه كان عند أسعد باشا كيخية. وكذلك كان عند أسعد باشا المذكور رجل يدعى موسى آغا وصار بزمانه كيخية وتسلم دمشق مدة سنوات. فهذا في هذه السنة صار وزيرًا وحضر له منصب صيدا.

ثم قال: في سنة ١٧٥٧ مسيحية موافقة سنة ١١٧٠ هجرية وقع الحرب في مدينة دمشق فيما بين الانكشارية والقبيقول. وسكَّرت البلد وحاصر وجاق القبيقول في القلعة (لأنه كان محافظ القلعة) وفي المدينة وكان حسين باشا في الدورة. ولم تزل دمشق في قتل ونهب واراجيف إلى حين حضر الوزير فهداهم شي قليل وراح الحجاز (حاجًا). وفيما بعد قامت الفتن والحرب وقويوا الانكشارية على العمارة وحرقوا حارتها وسوقها وجميع ما فيها وهربوا منها القبيقول. ودخلوا الانكشارية ونهبوا ما تبقى بعد الحريق. وكان يبكي عليه ويناح وتفرعنت الانكشارية. وفيما هم بذلك طلع الخبر بأن الجردة التي طلعت لملاقات الحج انتهبت من عرب بني صخر (أو صقر) نهبوها جميعها بعد قتلى كثيرين وهرب موسى باشا والي صيدا عريان حفيان بالزلط. وكان نهب الجردة بأرض معان في ٢٠ من ذي الحجة سنة ١١٧٠ ثم توصل موسى باشا إلى حوران إلى قرية درعا وهناك مات وأحضروه للشام ودفنوه. ولم تزل الأراجيف والمخاوف من قبل الانكشارية والقبيقول والحرب عمال ومتصل، والمدينة معتزلة ومسكرة، وكذلك أكثر حارات البلد وبيوت النصارى والمسلمين عزلوا أرزاقهم خوفًا من النبه الجاري. وأما وجاق القبيقول دخلوا جميعهم إلى القلعة وحاصروا فيها. وأما وجاق الانكشارية ضبطوا (استولوا على) جميع البلد وتفرعنوا بغير خوف وعملوا ربوات مساوي. وفيما كانت دمشق في الحصر والضيق وانقطاع أخبار الحجاج وعدم من يخبر كيف صار فيهم وإذا في ليلة ١٦ صفر سنة ١١٧١ أتت أخبار السوء بأن الحاج انتهب كله نهبه قعدان الفائز شيخ عرب بني صخر وعربه مع بعض عربان غيرهم؛ لأن الحاج لما وصلوا إلى قلعة تبوك ما قدروا يفوتوا لأنه بلغهم أن العرب المذكورين رابطين في الطريق فقعدوا في تبوك اثنين وعشرين يوما محاصرين. وصار عليهم غلا عظيم وأكلوا حلم الجمال من عدم القوت. ما عرف الباشا يرضي خاطر العرب ويفوت بل بجهله حمل ومشي. ولما قرب إلى ذات حج كبسه العرب وقُتل عالم لا يعد من العسكر والحجاج. وقويوا العرب ونهبوا الحاج كله وأخذوا المحمل وهرب ا الباشا برأسه وعاود إلى قلعة تبوك مع ثلاثة أنفار فقط. وراح كل تلك العالم والغنايم جميعا نهبا بيد العرب في صفر سنة ١١٧١. وقتل ومات عدد لا يعد وهفي جميعه وما وصل لدمشق إلا القليل. فلما وصل الخبر إلى دمشق مع بعض ناس هربوا من

عساكر كثيرة أخذها معه لخفارة الحجاج وعزم ألَّا يدفع للعربان شيئًا من عوائدهم. بل يحفظها ليدفعها للجند. ومن ثم سار بالحاج في تلك السنة وكان فيه كثير من كبار تجار العجم الأغنياء. وبعد أن قضى أيام الحج عاد بالحجاج وأبى أن يدفع للعربان عوائدهم. ولذلك قطعوا الطريق عليه وحاربوه وقتلوا كثيرين من عساكره ورجاله وأوقعوا النهب بالحاج حتى أتوا على الجميع ولم يسلم من الحجاج إلا القليل نجا مع الباشا وبعض رجاله. وقد كسب العربان بهذا النهب من الحجاج ما لا يقع عليه حصر وأخذوا المحمل والعلم النبوي الذي يُقال له العقاب. ولما بلغ ذلك ظاهر أرسل إلى عرب السردية وبني عقيل وبني كليب الذين كانوا عمدة هذا الأمر وتلطف بهم وهاداهم، ودعاهم أن يأتوا بالنهب ليشتريه منهم بما يرضيهم فقبلوا وحضروا ونزلوا بذلك في أرض المرج من الناصرة. وحضر الأمراء منهم إلى عكا فقابلوا ظاهرًا فخلع عليهم وأكرمهم، ثم مضى معهم إلى المرج إبراهيم الصباغ ورأى كلما كان معهم من النهب فاشتراه كله وكان في جملة ذلك العلم النبوي فأخذه منهم وأتى به إلى ظاهر. وقال له: لسعد الشيخ وجدتُ معهم راية العقاب وهذه هي قد أحضرتها لك فأرسلها إلى الدولة مع رسول ثقة. إذ لا بد أن يكتب لها حسادك ويتهموك بأنك كنت السبب لنهب الحاج ومغري العربان على النهب. فاستصوب ظاهر رأيه وأرسل عمدة إلى الدولة يخبرهم بأن طمع الباشا بمال عوائد العربان

أول الحرب وصلوا سالمين ثم تواصلوا المشلحين إلى دمشق لابسين الخيش صار الحزن العظيم في دمشق والبكا والصراخ والخوف من داخل ومن خارج وفي الدروب. ولا تسأل عما صار في دمشق... وفي ١٢ ربيع الأول من هذه السنة حضر المحمل إلى دمشق صحبة أحد المقدمين من أولاد دمشق وصحبته واحد من مشايخ الزغبية من أهالي حوران، استفكوه بسبعمائة ذهب خزيرلي وجابوه مع السنجق محمل إلى المحكمة بدمشق وسلموه للدفتردار وضعه في القلعة. ثم أتى خبر أن حسين باشا راح مع قلة السلامة من قلعة تبوك إلى بلاده إلى أرض غزة والرملة ومكث هناك بالذل...».

أوجب نهب الحاج وأنه تدارك ما وقع وبذل جهده حتى خلص من العربان راية العقاب وهي واصلة صحبة قاصده.

وأما الباشا فإذا فاز سالمًا بنفسه مع بعض أتباعه بعد ما نهب الحاج نهبًا تامًا وقتل أكثره وسبيت النساء خاف أن يحل غضب الدولة عليه لسبب ذلك فكتب كتابًا يعتذر ويذكر فيه أن ظاهرًا هو الذي أغرى العربان ولم يذكر شيئًا من طمعه بعوائد العربان ورفضه دفعها لهم.

فلما وقفت الدولة على كتابة الاثنين ولم تعلم أيهما الصادق أرسلت قبجي أو قاصدًا يقابل الفريقين ويبحث عن حقيقة الواقع فحضر القبجي إلى الشام واجتمع فيها بالباشا فاحتج له بأن ظاهرًا أغرى العربان وأثارهم على نهب الحاج وأكرم القبجي ورشاه. ثم جاء إلى عكا واجتمع فيها بظاهر فقابله بأمراء العربان الذين كانوا مقيمين بعد في المرج يستوفون ثمن النهب الذي باعوه لإبراهيم. فأخبره الأمراء بأن العرب يفدون مالهم بنفوسهم ولا يتركون حقهم يسلب بظلم الحكام ولا يصبرون على ذلك، وإذ وجدوا الباشا يطمع في مال عوائدهم ورفض أن يدفعها لهم بعد ما أنذروه ثلاثًا ولم يسمع لهم كلمة ولذلك نهبوه وقتلوا من تعرض لهم من رجاله أو الحجاج.

فلما سمع ذلك القبجي لم يبق له سبيل للشك والجدال في سبب النهب وما احتاج ظاهر أن يرشيه وإنما دفع له فقط كلفة سفره خمسة أكياس وهو ما يُدفع عادة للقبجي السلطاني. ورجع القبجي إلى إسلامبول ولا نعلم ماذا قال أو فعل هناك. إلا أنه بعد ذلك في هذه السنة ذاتها حضر تقرير لظاهر بولاية صيدا والبلاد الصفدية التي كان تبيده وكتبوا لوزير الشام أن يكون على استعداد تام لقتال ظاهر واغتياله في وقت مناسب كما بلَّغ ظاهرًا عيونه في إسلامبول.

قتل جهجاه في الحرب

وما انتهت سنة ١٧٥٩ ودخلت سنة ١٧٦٠ وظاهر يزيد حقدًا على عرب الصقر لاتفاقهم السابق عليه مع أخيه سعد وقد ارتكبوا في السنة الماضية ثلاث جرائم في سلب الطرقات فأرسل يوبخهم على ذلك وينهاهم عن مثلها. لكن بغير جدوى وكان يغضي عن ذلك ويحتمله إلى هذا العام. فاتفق أن إنسانًا متسببًا من الناصرة خرج إلى الشام ومعه بغلان عليهما بضاعة أو تجارة له فأخذوا البغلين منه مع ما كان معه. فجاء إلى ظاهر وأخبره بأمره، فأرسل ظاهر إلى رشيد الجبر يقول له: كتبت لكم مرارًا أن قفوا على حدودكم وحقوقكم وإلى الآن لم تسمعوا فإن الرجل الفلاني حضر إلينا منهوبًا في طريقه فبوصول أمري هذا إليكم يجب أن تنظروا من نهبه من عربكم وأن ترسلوا إلينا غريمه السارق وترجعوا المنهوب لصاحبه أو تخرجوا أنتم من حقه بذلك.

فلما وصل الكتاب إلى رشيد الجبر شمخ بأنفه متكبرًا أمام الرجل ولعن ظاهرًا وشتمه، وقال للرجل: إن كنت أنت لا تعرف غريمك فلا أعرفه أنا. ولما وصل الخبر إلى ظاهر جمع حالًا أولاده وأقاربه ومغاربته والبعض من رجاله من أهل البلاد وسار بهم لقتال العرب، وعلى المقدمة محمد العلي قائد جيشه.

وكان لعثمان ولد جميل الوجه لطيف الحركات خفيف الروح اسمه الجهجاه وكان جده ظاهر يحبه كثيرًا ولفرط محبته له لم يكن يدعه يغيب عنه يوما ولم يكن له من العمر حينئذٍ سوى أربعة عشر سنة، ومع صغر سنه كان فارسًا مغوارًا وشجاعًا لا يهاب الموت، وإذا سار ظاهر بقومه على عرب الصقر ضربهم وكسرهم كسرة مدهشة في وقعة طالت إلى نصف النهار قتل فيها رشيد الجبر وانهزم من سلم من

قومه، وكان جواد الجهجاه قويًا شديد الشكيمة صعب القياد فشال به ولم يقدر الفتى أن يرده، ودخل به بين عرب الصقر فاحتاطوه وقبضوا عليه وقتلوه ورموه في الطريق، ولما رجع ظاهر بقومه وبلغ إلى منزله استفقد مساءً الجهجاه وإذ لم يجده كاد يفقد صوابه وجدًا عليه وأرسل حالًا من يبحث عنه في المعسكر فلم يجدوه، فارتعدت فرائصه غضبًا وجزعًا عليه وأرسل من يفتش عنه في الطرقات وفي مكان الموقعة وجوارها ثلاثة أيام، إلى أن مر رجل من الناصرة في طريقه هناك فوجد جثة الجهجاه ملقاة بالطريق فعرفه، وكان كل الناس يعرفونه لجماله، فنزل عن جواده وحمله عليه وجاء به إلى ظاهر وأخبره أين وجده، فأدرك ظاهر ان عرب الصقر قتلوه فالتهب حزنًا عليه وأخذ يمزق ثيابه ويعفر وجهه بالتراب ويبكي، ثم ركب وأمر عساكره أن تركب معه بالحال وقال والله لا أنزل عن جوادي حتى آخذ بثأره واقطع الصقر ولشدة ما أظهر من الحزن ما قدر أحد أن يمسكه أو يعترضه بكلمة وسار بقومه تابعًا الصقر إلى أن أدركهم على بغتة وأصلاهم الحرب وأوقع بهم وذبحهم ذبحة مستوحشة. وفعل بهم ما لا يسمح من قتل الأطفال والشيوخ والنساء وبقر الحوامل، وقتل أكثر من سبعة وعشرين شيخًا من كبار مشايخهم، حتى كانت الخيل تخوض في الدم، وما نجا منهم إلا مون هرب وقد اختفوا في المغاور وكهوف الأرض، ورجع ظاهر إلى منزله في المرج، وأقام عزاءً للجهجاه ما سمع بمثله إلا للخلفاء والسلاطين، وقد دام أربعين يومًا نهارًا وليلًا وكانت تخرج نساء العرب كل يوم صابغة أيديها وأرجلها بالنيلة وتحمل السيوف منكسة يرقصن ويندبن الجهجاه. وهكذا الرجال كانوا يلبسون الاسود ويسيرون بالخيل وعليها الحلل السود، على كل جواد سيف منكّس، وجاءت إليه جميع مشايخ البلاد وأعيانها يعزونه على موت الجهجاه.

فوز بالصلح والغنيمة

ولما تمت أيام العزاء قام ظاهر وجاء إلى عكا وهو غير غافل عما يجب من الاستعداد لملاقاة عثمان باشا وقد بلغه أن عرب الصقر رجعوا إلى منزلتهم وجمعوا شملهم وأقاموا عليهم أميرًا قعدان الفائز وتقدموا إلى جوار الناصرة وهم عازمون على القتال له.

وفي أثناء هذا أرسل إليه ابنه عثمان يطلب منه أن يعطيه شفاعمرو انجازًا لوعده السابق له مع الناصرة لموت ولده الجهجاه. وتهدده بأنه إن لم يسمح له بهما خرج عن طاعته وتمرد عليه. فما بالى ظاهر بذلك، حتى أخذ عثمان يطوف على أخوته الصغار ويغريهم أن يطلبوا من والدهم ولايات لأنفسهم، وأن رفض أن يعطيهم ذلك يقوموا كلهم عليه عصبة واحدة، وإذا أبى ظاهر أن يعطيهم مطلوبهم اتفقوا مع عثمان أخيهم وحضروا برجالهم إلى شفاعمرو وحاصروها فأرسل ظاهر يقول لأهلها: لا تكلفوني أركب وفيكم مقدرة أن تطردوا أولادي، فإياكم أن تدعوهم يدخلون بلدكم، وإلا فوحق تربة سعد اعملت فيكم السيف وخربت دياركم ومحوت أثارها. فقام حينئذٍ عليهم أهل شفاعمرو وطردوهم عن بلدهم.

فذهب أولاد ظاهر من هناك إلى أخيهم الأكبر صليبي في طبرية ووقعوا لديه وترجوه أن يكاتب والدهم ليعطيهم مطلوبهم، فكتب له وشفع بهم فلم تجد شفاعته فاغتاظ عثمان واتفق مع أخوته على الخروج عليه وكاتب عرب الصقر يطلب منهم أن ينضموا إليهم على أبيه فأجابوه إلى مراده.

فلما علم بذلك ظاهر ورأى أن عاقبة ذلك خراب البلاد وسفك دماء العباد قام

بعسكره ونزل في المرج، وفي نصف الليل ركب وسار وحده دون أن يعلم به أحد إلى عرب الصقر ودخل فجأة خباء الأمير قعدان ولم يكن فيه أحد إلا أم الأمير وجواريها إذ كان الأمير قعدان غائبًا. فقالت له: من الفارس؟

قال لها: أنا يا وطفاء. فقالت له: ومن أنت؟ فأجابها، وقد نزل عن جواده: أنا ظاهر. فمن أكثر فروسية أنا أم الأمير قعدان؟

قالت: مرحبا بك يا شيخ يخسأ قعدان. فأنت أكثر فروسية وشجاعة إذ قتلت أميرنا وسبعة وعشرين شيخًا من مشايخنا ثم تأتي إلينا الآن وحدك. ثم جلست إليه تحادثه وتكرمه. فسألها عن الأمير قعدان فقالت له: راكب ويعود الساعة. ولما حضر الأمير قعدان سلم عليه واجتمع به وعاتبه، حتى تصالحا وأنعم عليه ظاهر بجميع غلة طبرية ففرح قعدان بذلك وقدم لظاهر هدايا من الخيل الكريمة وغيرها، ثم ركب ظاهر ورجع إلى عسكره ظافرًا بالصلح فائزًا بغنيمته على عدوه وأولاده بدون حرب ولا قتال، لأنه لما بلغ أولاده أنه استرضى عرب الصقر خافوا وسقطت نفوسهم في أيديهم وأرسلوا يطلبون منه السماح فسامحهم ورجع كل واحد منهم إلى مقره ومنزله.

ثورة دروز صفد بعثمان

لكن لم يزل عثمان ثائرًا وخارجا على والده ولذلك اجتمع بدروز بلاد صفد ووعدهم أن هم قاموا معه على أبيه وطلبوا نجدة أخوانهم دروز جبل لبنان انتصر لدينهم. ففعلوا وقاموا معه كلهم. وكان كبيرهم الشيخ عزام زينا على رأسهم، فجاءوا وعسكروا في قرية أبي سنان مقابل عكا ولما بلغ ذلك ظاهرًا أرسل أحضر ابنيه علياً وأحمد وركب بعسكره معهم وكبس القوم هناك وقتل منهم مقتلة عظيمة

وأرسل فنهب أموالهم وحرق بيوتهم وكتبهم في كل بلاد صفد، وهرب عثمان إلى عرب الصقر، ورجع ظاهرًا إلى عكا فائزًا منصورًا، وكاتبه الدروز يطلبون السماح منه والأمان فعفى عنهم ورجعوا إلى قراهم.

الصلح مع عثمان

وكتب ظاهر إلى عرب الصقر يأمرهم أن يطردوا ابنه عثمان ولا يقبلوه عندهم. فأبوا وأجابوه: كيف نطرد النزيل علينا ومن التجأ إلينا وهو ابنك وقد قصدنا ونحن أصحاب عرض وناموس وأنت أخبر من الجميع فينا! فوالله لو تلتجي أنت بنا على ولدنا لقمنا عليه، فوالله لا نطرد عثمان وهو عندنا في الرحب والسعة والإكرام إلى أن تسمح بمطلوبه. فقام ظاهر بعسكره من عكا إلى الصقر وباغتهم ليلًا. وكان عثمان ومعه غلامه عبد العيس فقام مذعورًا من خيمته وركب جواده بثياب النوم وناوش عسكر والده القتال، وبما أن ظاهرًا لم يكن قصده قتال عثمان فرجع إلى عكا مقهورًا ومغتاظًا، فاستأذنه وزيره إبراهيم الصباغ وكاتب عثمان ولاطفه، وضمن له أن يسمح له أبوه بالناصرة إذا جاء إليه من ذاته واسترضاه. ثم كاتب عرب الصقر وخوفهم عاقبة من يغري الابن بالخروج على أبيه، وقال لهم يمكنهم أن تحفظوا شرفكم وتخاطبوا عثمان بأن ليس له خير من أبيه وأنه ليس لكم طاقة معاداة ظاهر وبهذا توجبون عثمان أن يرجع إلى والده من تلقاء ذاته من دون أن تطردوه. فلما وصلت كتب إبراهيم إلى الصقر عملوا بموجبها، وكانت كذلك كتبه قد وصلت إلى عثمان بوعده له بالناصرة. فقام حينئذٍ وأتى إلى أبيه خاضعًا مطيعًا راجيًا منه السماح والعفو عما مضى والإحسان إليه بما يجود به كرمه، فولاه الناصرة وسار إليها وسكتت هذه الفتن.

علي بعد عثمان

وفي هذه السنة أرسل إليه ابنه علي يطلب منه دير حنا فما سمح له بذلك، فراجعه علي وطلب منه دير القاسي فرفض ذلك ظاهر. وغضب علي من رفضه هذا، وكان شجاعًا باسلًا ذا نجدة أكثر من جميع أخوته وقد ساعد والده في جميع حروبه مع أخصامه. فجرد علي خيله عليها ليأخذها بالقوة عنوة وإذ بلغ هذا ظاهر أخذ عسكره من المغاربة والمتاولة وأهل البلاد وأمر بجر المدافع أمامه وسار بذلك كله إلى ولده علي بصفد. ولما رأى علي قوة أبيه وتمام استعداده لقتاله وأن ليس معه أحد من أخوته ولا من أعيان البلاد ألبس ولديه الحسن والحسين البياض ووضع في رقبة كل منهما محرمة بيضاء، وأرسلهما إلى جدهما ظاهر يطلبان العفو منه لأبيهما. ولما أقبلا على ظاهر ترجلا سريعًا إجلالًا له، فمنعهما، ثم تقدم فعانقهما وقبلهما وقال لهما: لقد غلبني أبوكما بكما. ثم أمر فنصبت الخيام هناك وأرسل طلب ابنه وقال له أحضر بكفالة ولديك، فحضر علي وذبحوا الذبائح وأكلوا جميعًا وانسروا بعدما قبّل على يد والده وطلب منه السماح فأعطاه دير القاسي مع صفد التي كانت في يده من قبل.

فتن الأولاد كثيرة

وفي آخر هذه السنة أرسل سعيد يطلب من أبيه حطين وطرعان بحجة أن الذي في يده لا يكفيه للقيام بشرف ناموسه. فرفض ظاهر إجابة مطلوبه ولما رأى أن عليًا أخاه نال مطلوبه سار إليه ونزل عليه يطلب منه أن يشفع له عند والده ليعطيه القريتين المذكورتين، فكتب له علي بذلك، فأجاب ظاهر بأن جميع البلاد تفرقت وتوزعت بينه وبين أولاده مالًا ورجالًا ولم يبق منها معه إلا القليل وأمامه حروب يجب أن يستعد لها ويحتاج للقيام بها إلى مال كثير. ومن ثم لا يقدر أن يعطيه ما

طلب، ثم قال له: إن كنت محبًا لشقيقك -وكان سعيد أخاه لأمه- وتحن عليه فاسمح له بشيء مما هو في يدك.

فلما وصل إليه الجواب قال علي لأخيه: لا تنغم يا أخي، والله لا بد أن أخذهما لك بهذا -وأشار بسيفه-.

فذهب أحد الوشاة وأخبر بذلك ظاهر، فأرسل دعا إليه ابنه عثمان فأتاه برجاله وجرد عسكره وسار به لتأديب علي فلاقاه أخيه برجالهما. واستحر القتال بين الفريقين حتى انكسر علي وسعيد أمام عثمان ورجاله، وكان لهذا ولد اسمه الكنج وله من العمر ستة عشر سنة وكان مع هذا فارسًا شجاعًا باسلًا وكان مع والده حينئذٍ في مطارة عميه علي وسعيد. ولما عاد والده أبى أن يرجع معه بل لبث مطاردًا عمه سعيدًا وكان مستلًا عليه سفيه، وهو يقول: لعينك يا عمي إلى أن كاد يمسه. فقال له سعيد: ارجع يا ابن أخي. فأبى أن يرجع. فأعاد عليه ذلك وإذ لم يرجع أطلق عليه سعيد طبنجة تهديدًا له، حتى يرجع عنه غير قاصد أن يصيبه. لكن مع هذا أصابته وسقط ميتًا عن جواده. فنزل سعيد عن جواده وانكب على الكنج وأخذ يقبله ويبكي عليه بحرقة وأسف شديد.

ولما علم بذلك ظاهر أتى منزعجًا يلطم وجهه ويبكي عليه وتركوا القتال وأقاموا له العزاء مثل أخيه الجهجاه أربعين يومًا. وأتى إليه الولاة وأعيان البلاد وجميع أولاده يعزونه فيه. ثم أتاه علي بأخيه سعيد ودخلا عليه مع إبراهيم الصباغ وزيره وترجوه أن يرضى عليه ويصفح عنه. ثم قالا له إن الذي في يد سعيد لا يكفيه لقيام ناموسه. وهو ابنه وناموسه وشرفه يعود على أبيه، فالتفت ظاهر إلى إبراهيم وبكى ثم قال له: يا إبراهيم أنا لا أبخل بروحي على أولادي وهم يعلمون أني لهم أولًا وأخيرًا، إلا أني أريد أن يتمرنوا على شظف العيش والابتعاد عن البذخ وترف

العيش وأنا حاسب حساب قيام الدولة علينا ومع هذا حبًّا وكرامة اكتب له تقريرا بولاية حطين وطرعان فكتب له ذلك إبراهيم فأخذه وقبل يد أبيه ومضى شاكرًا له.

مخائيل الجمل وعلي بك

وفي أواخر هذه السنة قدم إلى عكا مخائيل الجمل معلم دواوين مصر منفيًا من علي بك. وكان قد خرج عن طاعة الدولة وقتل كبار السبع الجوقات واستقل في حكومة مصر ودانت له بلادها، ودعا إلى نفسه بالسلطنة وقتل شريف مكة وأقام في مكانه أخر من أهله مواليًا حتى قام عليه أصحاب السناجق والوجاقات المغلوبين بإيعاز الدولة واعتصبوا عليه حتى كاد يقع في أيديهم، ولما شعر بذلك فر هاربًا إلى الصعيد، وكان حينئذٍ مخائيل الجمل معلم الدواوين في مصر وملتزم الكمارك فيها فكتب له سرًّا أن يرسل له ما يحتاج إليه لأنه خرج من مصر ولم يأخذ معه شيئًا من المال ولا من الثياب. فخاف مخائيل عاقبة ذلك من أعداء علي بك إذا علموا أنه أرسل له مطلوبه، ولذلك رفض أن يرسل له مطلوبه. وكان مخائيل الجمل من طائفة الملكيين الكاثوليك، وكان من المتولين عنده رجل تحت يده من طائفة الروم الغير الكاثوليك قد عرف ذلك منه. فأخبر به مخائيل فخر وهو رجل تاجر في دمياط من أبناء طائفته غني جدًّا فجهز مخائيل فخر مطلوب علي بك من ماله وأرسل إليه مع مكتوب يقول له فيه: وإن لم يكن لي سعد ثاقب يشرفني بمعرفة الحضرة العلية قبل الآن فإني رأيت أن أرسل له إن كانت تسمح الحضرة بقبوله ما أنا مرسله له مع خادمي مما امتنع عن إرساله بعضه خادمكم.

فلما وصل هذا إلى علي بك عظم عنده معروف الرجل وقبل المرسل وكتب له شاكرًا له عمله وأنه متى رجع إلى مصر موفقًا يرى منه خير الجزاء ومكافأة ثم تبدلت

الأحوال ورجع علي بك برجاله إلى مصر وفاز على حساده وغلبهم على الأمر وأرسل أحضر مخائيل فخر وجعله معلم الدواوين ونفى مخائيل الجمل إلى عكا.

فلما وصل هذا إلى عكا نزل ضيفًا فيها على إبراهيم الصباغ فأخذه هذا وقابل به ظاهر وكلمه بشأنه لأنه من طائفته وأكبر أعيانها في مصر فترحب به ظاهر وأكرمه ووعده خيرًا ثم عاد به إبراهيم إلى منزله حيث أقام مدة ليكاتبوا علي بك ويسترضوه عليه.

وقد سر ظاهر بهذا الداعي لأنه بلغه شدة بأس علي بك وصولته وأنه جاهر بعداوة الدولة والخروج عن طاعتها والعصيان عليها وكان ظاهر بخوف من الدولة إذ كانت تحضر له الأخبار من عيونه في إسلامبول بما كان رجالها يكتبون إلى عثمان باشا لاغتياله والقضاء عليه. ومن ثم أراد ظاهر بهذا الداعي أن يفتح سبيلًا لمكاتبة علي بك ليخطب وده ويتقوى به على عثمان باشا الشام. لكن انشغل عن ذلك بما وقع له مع ولده علي من جديد.

علي في دير حنا

وذلك أن عليًا أرسل إلى والده يطلب منه أيضا دير حنا. وإذ رفض ظاهر طلبه جمع علي رجاله وأتباعه ليأتي بهم إلى دير حنا ويأخذها بالقوة عنوة. وعندما بلغ ذلك ظاهر وكانت خيله وفرسانها في الربيع قام بما كان عنده من عسكره في نحو مائة وخمسين فارسًا واضطر أن يستعين بأهل عكا. وأمر المنادي أن ينادي من يحب الشيخ ظاهر فليخرج معه وأهل عكا كلهم تجار متسببين ولا سيما النصارى لا يعرفون استعمال السلاح بل يخافون القتال ويجزعون من منظر القتلى. ومع هذا خرجوا مع ظاهر، وأقبل علي عليهم وإذ تقدمت مقدمة ظاهر قابلها فرسان علي وأوقعوا في

بعض التجار وسلبوا منهم ثيابهم وكلما كان معهم وقادوهم أسرى إلى علي فلما رآهم علي وعرف أنهم من أهل عكا وتجارها النصارى تلطف بهم وأطلقهم وأكرمهم وأمر رجاله أن يردوا لهم ثيابهم وأمتعتهم التي سلبوها، وقال لهم يا أنذال ما قدرتم على غير أولاد عكا الذين هم أعز أولادنا وليس لهم ذنب عندنا، فإن كان ظاهر بخل على ولده بمطلوبه وهو في خلاف معه وخصام لسبب ذلك فما ذنب هؤلاء المساكين. فوالله ثم والله كل من أذى أحدًا من أهل عكا أو أخذ منه شيئًا لا يسد به إلا رأسه.

ثم أمر علي فرسانه أن يضربوا على ظاهر تهديدًا له ويضايقوا عليه بدون أن يوقعوا به شرًّا.

ولما رأى ظاهر قلة عدد رجاله وأنهم تجار لا يعرفون أمور الحرب والقتال رجع بهم إلى عكا، وأرسل طلب فرسانه والمغاربة وجر المدافع أمامه وسار بذلك كله على قتال ولده. فلما رأى ذلك علي أيقن أن لا قدرة له على ملاقاة أبيه. فبارد بإرسال أولاده الصغار مع نسائه إلى دير حنا وركب برجاله وهرب من أمام والده احتيالًا. فلما جاء ظاهر إلى دير حنا وجد الأولاد الصغار والحريم فيها فلم يجد أن يطردهم منها بل لاطفهم وأكرمهم وقبَّلهم وقال لهم: عرف أبوكم أنه لا يقدر أن يغلبني إلا بكم، فأرسلوا ادعوه وعدوه بنيل مطلوبه، وهمَّ أن يرجع إلى عكا فأتاه علي مسرعًا وقبل يديه وترجاه أن يمن عليه بعفوه ورضاه. فسامحه ظاهر وكتب له تقريرًا بدير حنا ورجع إلى عكا.

مخائيل الجمل ونجاحه

فلما طالت هذه الحال على مخائيل الجمل ضاق صدره وفرغ صبره، وكان يأتي كل يوم إلى عند حبيب ابن إبراهيم الصباغ في حاصله ويقضي هناك سحابة نهاره. وكان

حبيب يأتيه الغداء إلى الحاصل فيأكل معه، واتفق في بعض الأيام أن حضر الغدا ووضع في محله، فأمر حبيب أن يدعو مخائيل الجمل ليأكل معه كالعادة، فطلبوه فلم يجدوه ولبث حبيب في عمله ينتظره إلى أن اضطر لطلب شيء من داخل الحاصل وإذ دخل إليه وجد مخائيل الجمل جالسا يبكي. فتقدم إليه وقال له: ما يبكيك يا معلم مخائيل؟

فأجابه مخائيل: كيف لا أبكي وقد طال غيابي عن أهلي وضاق صدري والشيخ ظاهر نسيني و...

فاسرع حبيب وقال له: قم نتغدى ودع البكاء للنساء.

فقال له مخائيل من يكون حاله كحالي لا يقدر أن يأكل.

فقال له حبيب: موه عنك وقم كل. فبحق رأس ظاهر لا يأتي الليل وأنت عائد إلى مكانك معلم الدواوين في مصر، ولا تكون نفقة سفرك وما تحتاجه إلا من مالي الخاص، لا من مال الشيخ ولا من مال والدي إبراهيم.

وبعد أن تغدوا معا قام حبيب وذهب إلى والده عند الشيخ وأخبره بما وقع.

فقال له إبراهيم: أتقدر أنت أن تقدم هدية لائقة إلى علي بك؟ فأجابه حبيب: نعم. ثم دخل إبراهيم مع حبيب على الشيخ وأخبره بما كان من مخائيل الجمل ومن كلام حبيب له.

فقال الشيخ ظاهر لحبيب: أنت تاجر والتاجر لا يحسن به أن يكون مسرفًا. وما فائدتك من خسارة كبيرة مثل هذه؟

فأجاب حبيب: يكفيني أني انجدت من قصدني ويسر به ولي نعمتي وولي أمري ويكون سببًا لموالاة علي بك لمولاي الشيخ.

فسر الشيخ ظاهر بجواب حبيب وقال له: لا يعجب هذا منك، وأنت ابن إبراهيم. لكن أخبرني ماذا تريد أن ترسل لعلي بك.

قال له عندي خمسة عشر درعًا وعشرة رءوس خيل كريمة وسأنظر له عشرة سيوف.

فقال له ظاهر: اجعل من كل صنف عشرين وأعطِ مخائيل ما يحتاج إليه في طريقه من مال وغيره. وأرسل إلى علي بك مكتوبًا مني مع ساعي سريع بالبر بالرجا أن يعيد مخائيل إلى رتبته. واعتذر له عنه وفخم بالمديح له ما استطعت. وانه إذا قبل رجاءنا فيه يذخر ماله ليصرفه فيما يورم من أموره. ويكون مخائيل أسير عفوه وتفضله وما قصدنا برجائنا في مخائيل الجمل إلا إظهار حبنا وإخلاصنا لعلي بك. فعمل حبيب كما قال له ظاهر وذهب مخائيل الجمل في مركب فرنساوي وأخذ معه الهدية، إلا الخيل فإنه أرسلها برًا. وكان ذلك أقصى مراد علي بك. ولما وصل إليه كتاب ظاهر انسرَّ به وقبل الهدية وأعاد مخائيل الجمل إلى مكانه الأول معلم الدواوين. وأرسل إلى ظاهر جوابًا ضمنه كل شكر ومحبة وأنه عمل بما رغب إليه بشان مخائيل الجمل. ثم سأله إذا كان يحتاج إلى نجدته ومساعدته على عثمان باشا، لأنه بلغه أن الدولة كانت تغريه على قتاله واغتياله. ثم شجعه بأن لا يخشى بأسًا من عثمان باشا ولا من الدولة وأنه ينبغي يكون دائمًا على حذر من مكر رجالها. فلما وصل هذا إلى ظاهر وقرأه سر به جدًا واشتد عزمه وخف عليه اضطراب باله من قبل عثمان باشا.

عثمان في لبنان

وعاد عثمان إلى طلب شفاعمرو من أبيه. وأخذ لذلك يثير أخوته على أبيهم وعوّل على أن يخرج معهم عليه إذا منعها عنه. وإذ علم بذلك ظاهر همَّ أن يقبض عليه فانذره بذلك أحد أتباعه فهرب إلى جبل لبنان عند الدروز. فغضب لذلك ظاهر ووضع يده على جميع أملاكه وولايته قصاصًا له وانتقامًا، لأنه هرب ولاذ بالدروز وكانوا بحرب وقتال مع أحلافه المتاولة ولسبب ما تقدم من اتفاقه السابق مع دروز بلاد صفد. ولبث عثمان نحو سنتين عند الأمير ملحم شهاب الذي كان حينئذٍ أمير الدروز وحاكمهم. وإذ كان معتادًا على البذخ والسعة بخيرات بلاد صفد وتربى وشب على الكرم والجود عند والده، مما لا وجود له في جبل لبنان القاحل، ضجر من ضيق ذات يده وترجى الأمير ملحم أن يكتب لأبيه توصية به ويطلب له السماح. ففعل وقبل ظاهر رجاءه بولده وسامحه وأرسل إلى عثمان (سفرجلة) مشيرًا بها أن يعجل بالسفر إليه ففعل. وأرسل معه الأمير ملحم كرامةً له الشيخ علي جنبلاط في نحو مائتي فارس وكتب إلى مشايخ المتاولة في بلاد بشارة أن يكونوا معهم ويسترضوا والده عنه فأقبل عليهم في الطريق الشيخ قبلان والشيخ ناصيف بكبار رجالهم. ولما بلغوا إلى رأس العين خارج صور نزلوا هناك وأرسلوا أخبروا ظاهر. فقام ظاهر مع وزيره إبراهيم الصباغ إلى هناك وأقام لهم وليمة عظيمة أظهر بها كرمًا زائدًا حتى إنهم لا يزالون إلى اليوم يذكرونها في جبل لبنان كشيء ما صار له نظير.

وإذ تكلموا بعد ذلك بشأن عثمان والشفاعة به أوعز ظاهر إلى إبراهيم أن يوقفهم على جلية أمره وسوء أعماله، ففعل حتى دهشوا كلهم من ذلك ولاموه على عقوقه ثم ترجوا والده أن يعفو عنه ويرضى عليه وضمنوا له طاعته وخضوعه له، فرضي

عليه ظاهر ورد له ولايته وجميع أملاكه، ورجع كل واحد منهم إلى محله[1].

سياسة تركية

ثم جاء الأمر العالي إلى ظاهر برفع يده عن صيدا لأن الدولة ولت عليها درويش باشا ابن عثمان باشا وزير الشام.

ثم حضر له تعريف من وكيله في إسلامبول يخبره بأن الدولة أرسلت الأوامر المشددة إلى عثمان باشا تحثه على قتالك. ولأجل مساعدته على إتمام ذلك حسب التماسه فوضت إيالة طرابلس الشام إلى ولده محمد وجعلته باشا، وكذلك فوضت إيالة صيدا إلى ولده الثاني درويش وجعلته باشا. وأرسلت إلى وزير حلب وأمير

---

(١) فر عثمان إلى لبنان مرتين على رواية الأمير حيدر لا مرة واحدة كما ذكر المؤلف. الأولى كانت سنة ١٧٥٣ على عهد الأمير ملحم وقد استرضاه حينئذٍ والده بأن أرسل له سفرجلة موعزا إليه بها رمزًا بالسفر إليه عاجلًا. وقد تضمن لفظها ذلك منحوتًا. ولا يصح أن يتوسط أمر ذلك الأمير ملحم مع مشايخ المتاولة وقد كان معهم بحرب وقتال كل أيام حياته.

والمرة الثانية كانت سنة ١٧٦٦ على زمان أخيه الأمير منصور الذي كان مواليا للشيخ ظاهر والمتاولة بخلاف الأمير يوسف ابن أخيه الذي كان يزاحمه على الحكم فإنه كان مواليا لعثمان باشا وأولاده محمد ودرويش ومن ثم يصح أن يتوسط الأمير منصور (لا ملحم ولا سواه) أمر الصلح بين عثمان وأبيه وأن يكتب بذلك إلى مشايخ المتاولة وأن يحضر عقد الصلح إبراهيم الصباغ ولم يكن له يد عند ظاهر قبل سنة ١٧٦٦. وفي المرة الثانية نظم عثمان قصيدته الميمية التي عارض بها معلقة عنتر العبسي في شرح واقعة حاله وأولها:

كم غادر الشعراء من متردم	وعرفت ربع الدار دون توهم

وقد رواها كلها الأمير حيدر في صفحة ٧٩٢ وما يليها بعد قدومه إلى لبنان في صفحة ٧٧٦ ولا يخفى أن كلام الأمير حيدر في تاريخ لبنان في عهد بني شهاب حجة يصح أن يعول عليه أكثر من

الدروز بأن يكونا برجالهما عونًا لهم على قتالك وصدر لهم الأمر بقطع رأسك ورءوس أولادك جميعًا.

فلما علم ذلك ظاهر انزعج واندهش من خيانة الدولة في عهودها لأنه لم يكن قد انقضى أكثر من شهر على وصول التقرير له بإيالة صيدا والبلاد التي في يده من بلاد صفد عن السنة الجارية يومئذٍ.

ومن ثم كتب حالا إلى أولاده ومشايخ المتاولة وكبار رجاله يدعوهم للحضور إليه في عكا. وإذ حضروا أخبرهم بهذا الأمر وشاورهم بما ينبغي فعله، وعولوا بالاتفاق معه على التأهب للحرب والقتال إذا اقتضت الحال وافترقوا على هذا وعادوا إلى أماكنهم ليستعدوا للقتال بأسرع مدة.

ثم أرسل ظاهر جواسيس على عثمان باشا ليطلعوه على ما يبدو منه فأتاه منهم الجواب بأن عثمان باشا مع باشا حلب وغيره على أهبة السفر للقتال.

القتال

وكان قد اتفق عثمان باشا مع باشا حلب على أن يأتيا برجالهما ويجتمع العسكر كله بقرب جسر بنات يعقوب إلا أن باشا حلب اعتذر عن الحضور لبعد المكان عن حلب لكنه أرسل مع عساكره من ينوب عنه.

ثم أن عثمان باشا قام من دمشق وجاء بعساكره وعساكر حلب إلى المكان المذكور فوجده يضيق بكثرة العساكر فنزل على بركة الحولة من ورائها وجعل البركة بينه وبين ظاهر.

ولسعد ظاهر اختلف الميعاد المضروب بينه وبين باشا صيدا ولده درويش باشا ومن كان معه من الدروز وأخيه محمد باشا طرابلس لأن عثمان باشا وصل برجاله ولم صل أحد منهم لأنهم أخذوا طريقا آخر بعيدًا من ناحية صيدا.

ثم وصل كذلك ظاهر برجاله ووقف أمام عثمان باشا بسرعة والبركة بينهما وفي تلك الليلة اجتمع ظاهر بأولاده ورؤساء عساكره وأمراء المتاولة ورتب كلًّا منهم على ما اقتضى رأيه وافتقد حينئذٍ ابنه عليًا فلم يجده فاغتاظ منه وبات تلك الليلة غضبان عليه.

ثم انه في الفجر الغميق سمع ضجة عظيمة في عسكر عثمان باشا فقام ونظر البعض من عسكر الباشا يلقون أنفسهم في البركة والقتل وقضاء الله نازل فيهم. فأرسل سأل عن ذلك فقيل له: ابنك علي كبس عسكر الباشا بخيله وهو يذبح بهم. فسرّ بذلك ظاهر وأرسل خيلًا نجدة إلى علي فذبحهم علي ذبحا ما سُمع مثله. فانه على القول كان في نحو ستمائة خيال وعسكر الباشا أكثر من خمسة عشر ألف وما نفذ سالمًا منهم في هذه الموقعة إلا بعض أفراد حتى إن عثمان باشا قام وخرج من خيمته في ثياب النوم مضغوطًا وقد استولى عليه الخوف الشديد حتى ألقى نفسه في البحيرة فرآه حينئذ أحد عبيده وكان يجيد السباحة فنزع عنه ثيابه وأدركه وأخرجه من الماء بعد أن اشرف على الهلاك وألبسه لباس الأسافل وجاءه بجواد ركبه وأخذ به في غير طريق ومضى به فائزًا بحياته وسلامته إلى الشام.

ثم جمع ظاهر الغنائم والأسلاب ووهب منها كثيرا لعلي ابنه وأتباعه وأمراء المتاولة وأمرهم أن يرسلوا الجواسيس ليروا من أي طريق قادم باشا طرابلس وباشا صيدا والدروز لئلا يهجموا غفلة عليهم. فمضى الجواسيس ورجعوا فاخبروا أنهم قادمون على طريق جبل المتاولة من ناحية صيدا فعند ذلك قام ظاهر مسرعًا بعسكره

مع أولاده والمتاولة وأتى بهم فوجدوهم قد باتوا قرب قرية كفر الرمان فوقع القتال بينهم وما مضت ساعة حتى انهزموا أمام علي الظاهر والشيخ قبلان وناصيف وتبعتهم الخيل الطراد يقتلون كل من أدركوه منهم. ثم أرسل ظاهر إلى صيدا الدنكزلي أغاة المغاربة طرد منها درويش باشا واستولى عليها وحصنها ووضع فيها نائبًا عن ظاهر ابن محيي الدين أغا[1] ورجع ظاهر إلى عكا منصورًا ظافرا.

يافا وغزة والقدس والخليل

وكانت قد تعبت كثيرًا البلاد من عثمان باشا ومن كثرة مظالمه لاحتياجه إلى نفقات الحرب فأتى إلى ظاهر أناس من الخليل والقدس ويافا يلتجئون إليه مما هم فيه من مظالم عثمان باشا[2]. فاستفرص ذلك ظاهر وأرسل ابن عمه كريم الأيوب وجعله واليًا ليافا والقدس والخليل وأرسل يطلب تقرير الدولة ودفع لذلك خمسمائة كيس فاستولت الدلوة على المبلغ وأرسلت له تقريرًا بولايته عليها.

وكانت قد وصلت حينئذٍ مكاتيب عثمان باشا إلى الدولة بالاعتذار عن كسرته في موقعة الحولة وأنها كانت من خيانة الدروز لتخلفهم عن معيادهم ووصلت مكاتيب الدروز معتذرين بان مسيرهم كان من ناحية صيدا لأنهم تصوروا بان عثمان باشا يقدر أن يقف بعساكره وعساكر حلب مقابل ظاهر ويشغلوه ولو مدة يسيرة حتى

(١) محيي الدين أغا من آل حمود كان يلتزم من الوزراء وزراء صور وصيدا وعكا وهو الذي أصلح ذات البين بين الأمير ملحم شهاب مع عثمان باشا المحصل وزير صيدا سنة ١٧٤٣. وداره من أعظم دور صيدا التاريخية هي اليوم ملك وسكن الخواجا رفلي دبانه وأولاده من كبار أغنياء صيدا وأعيان طائفة الروم الكاثوليك.

(٢) قال مخائيل بريك: «في سنة ١٧٦٦ ركب الوزير عثمان باشا على مدينة الرملة وكانت محاصرة من [illegible]

يكسبوا صور وعكا ويأخذوها على غفلة بينما يكون ظاهر مشغولًا مع عثمان باشا. فقبلت الدولة أعذار الدروز وأرسلت إلى عثمان باشا فرمانًا بان يمضي ويطرد ظاهرًا من يافا.

وإذ بلغ ذلك إلى ظاهر كتب إلى علي بك في مصر يخبره به ويشكو له من خيانة الدولة وأن كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لا تلبث أن ترسل إلى عثمان باشا تحثه أن يغزوه ويقاتله وطلب من علي بك نجدة لرد عثمان باشا عن يافا وبلاد القدس والخليل. فما توقف علي بك بل بادر حالا وجهز له تجريدة نحو أربعة آلاف مملوك وعليهم إسماعيل بك من كبار مماليكه وأوصاهم بالطاعة لما يأمرهم به ظاهر[1] فمضوا في طريقهم.

وكان عثمان باشا قد قام من الشام مسرعًا وأراد أن يصل إلى يافا قبل أن يصل إليها ظاهر ليمنعه عن الاجتماع بعسكر الغز المصري. وكان ظاهر قد خرج من عكا وأراد أن يسد عليه الطريق إلى يافا وأقام أمام قيسارية ينتظره هناك وهو لا يدري أنه سبقه إلى يافا.

ولبث ظاهر في مقامه ثلاثة أيام ينتظر نجدة مصر إليه وقد بلغه الخبر أن عثمان قادم إليه بقوة عظيمة من رجاله لا يقدر أن يقف أمامها فقلق ظاهر وزاد قلقه عندما نظر طلائع عثمان باشا عليه ثم وصل الباشا وخيم أمامه فجزع ظاهر لذلك جدًّا لكنه تجلد وتشدد وعند العصر من ذلك النهار أقبلت عليه عساكر ونزلت قرب عسكره فزال خوفه واشتد واعتز وحضر إسماعيل بك وسلم عليه وأخبره بما هو مأمور به وأنه مع كل من هم معه تحت أمره وطاعته فشكرهم ظاهر وخلع عليهم ووعدهم خيرًا وأوعز إليهم أن يمضوا يرتاحوا من مشقة السفر.

---

(١) قابل تاريخ الأمير حيدر صفحة ٨١٠ وتاريخ عبد الرحمن الجبرتي صفحة ٣٥٤ من المجلد الأول

ثم إن ظاهرًا إذ تأمل بغز مصر وقوتهم وغناهم وجمال كسمهم اعتز بهم وأرسل رسولا إلى عثمان باشا في تلك الليلة يقول له: إن غز مصر أتت تساعدني عليك فإن شاء الله غدًا صباحًا يكون القتال فانزل إلينا برجالك.

فلما وصل هذا إلى عثمان باشا أجابه معتذرا بالسفر مع الحجاج وقد انزعج وخاف حتى قام بعسكره ليلا وهرب راجعًا على عقبه. ولما اصبح الصباح ركب ظاهر عليه بغز مصر فوجدوه قد هرب وجدوا السير وراءه فلم يدركوه وانعم ظاهر على سناجق مصر وأرجعهم وأصحبهم بكتاب شكر إلى علي بك يخبره بما وقع. ثم رتب ولاة لهذه البلاد وأمر بتحصين يافا ورجع إلى عكا[1].

---

(١) قال عبود الصباغ في هذا الصدد ما هو أكثر تفصيلًا مع بعض اختلاف: «خرج إسماعيل بك من مصر بأمر علي بك ووصل إلى غزة ومنها إلى الرملة. فإذ بلغ عثمان باشا قدومه إلى الرملة خرج من الشام بعسكر عظيم لمحاربته فلما وصل إلى يافا أرسل عرب الصقر الذين كانوا أعداء لظاهر أن يربطوا الطريق عليه ليمنعوه عن الاجتماع بإسماعيل بك. والطريق من بلاد عكا إلى الرملة يسير في مرج ابن عامر وفي السكة مخاضة نهر المقطع فربطوا له الطريق فيها. وإذ سمع ظاهر بوصول إسماعيل بك إلى الرملة وأن عثمان باشا توجه لمحاربته أرسل إليه ابنه عثمان بقسم من رجاله طليعة وإذ سار عثمان برجاله بلغه أن عرب الصقر رابطون مخاضة نهر المقطع رجع إلى أبيه فغضب ظاهر وحالا ركب بذاته مع عساكره إلى الرملة ولما بلغ العرب أن عثمان الظاهر رجع برجاله إلى عكا وأن عثمان باشا اشتبك بالقتال مع إسماعيل بك تركوا المخاضة وساروا إلى نجدة عثمان باشا. وإذ بلغ ظاهر إلى هناك لم يجد أحدا منهم على المخاضة وسار إلى أن بلغ إلى الرملة وقابل هناك إسماعيل بك وسلم عليه فأخبره هذا أن عثمان باشا نازلني أمس بالقتال وفي هذا النهار أرسل لنا رسولًا بذلك فقال له ظاهر: وأين رسوله؟ وإذ أحضر إليه الرسول قال له ظاهر: اذهب وقل لعثمان باشا أنك عرّفت ظاهر أن مرادك الحضور إلى عكا وتريد أن تنصب خيامك على تل الفخار فظاهر لا يمنعك بل حضر إلى الرملة إليك ونهار غدٍ لا بد من القتال وأن كان لا يحضر إلى الرملة فلا بد لي أن أقابله في يافا.

فلما بلغ عثمان باشا من الرسول خبر وصول ظاهر إلى الرملة هرب من ساعته ليلًا إلى الشام وبما أن الرملة قريبة من يافا نحو ثلاث ساعات وصل الخبر سريعًا إلى ظاهر وحالًا قام ولحقه إلى أن وصل

عودة عثمان إلى سوابقه

ولما رجع ظاهر إلى عكا وجد ابنه عثمان عاد إلى سوابقه وكان يجول بين إخوته ويغريهم عليه ويحرك مشايخ البلاد ليخرجوا عن طاعته. ومما بلغه عنه أن مراده أن يتزوج بامرأة درزية قد علقها فحينئذٍ عقد ظاهر ديوانًا من كبار الزيادنة وأرسل أحضر عثمان. ولما دخل المذكور المجلس أشار ظاهر إلى الدنكزلي فتقدم هذا إلى عثمان وأخذ منه سلاحه وقال له: أنا عبد مأمور. فقال عثمان: هذه إذًا خيانة منك يا ظاهر.

فقال له ظاهر مغتاظًا: شيمتك أنت الخيانة والغدر يا كلب. فإلى متى احتمل عقوقك؟ فإن تكن بمقام عيني فخير لي قلعها. قم اخرج معه يا كافر. فقام وخرج فاخذه الدنكزلي وأنزله في مركب أعد له وأرسلوه منفيًا إلى مصر. وأرسل ظاهر مكاتيب إلى علي بك ليضعوه في القعلة محبوسًا. لكن علي بك لمحبته لظاهر وأولاده ما فعل ذلك بل أعطاه منزلًا واسعًا في مصر ورتب له الرواتب وأمر أن يأتي إليه كل يوم يحضر ديوانه. وكتب إلى ظاهر أنه فعل معه ما أراد[1].

الحملة المصرية على الشام

ثم إن علي بك جهز مملوكه محمد بك وأرسل معه مقدار عشرة آلاف من غز

ظاهر يقوم عليه أهل البلاد مع عثمان باشا ويهلك هو وكل من كان معه من عسكر الغز. وكذلك عسكر ظاهر خافوا على نفوسهم من موت ظاهر؛ لأنهم كانوا في بلاد نابلس وهي لعثمان باشا.

(١) ذهب البعض إلى أن ظاهر ارسل ابنه عثمان إلى علي بك رهينة ليتحقق صدق إخلاص ظاهر له وكذب ما أخبره عنه وعن أولاده إسماعيل بك ومحمد بك ابو الذب بعد رجوعهما إلى مصر عن دمشق وكما يأتي الكلام عن ذلك والله أعلم.

مصر وحثه أن يطرد عثمان باشا وأرسل رسولًا إلى ظاهر يعرفه بذلك ويرجيه بمساعدته بالرجال. فأرسل ظاهر وأحضر ابنه عليًا وجرد له ثلاثة آلاف خيال من فرسانه وسار بهم مع محمد بك إلى الشام.

وإذ وصل إلى هناك حط (محمد بك خيامه في ظاهرها، واجتمع به سرًّا عثمان باشا وأوقفه على أوامر من الدولة بأنه إذا قام على مولاه علي بك وطرده من مصر أو اغتاله توليه الدولة مكانه؛ لأن عثمان باشا كان قد بلغه أن علي بك عزم على أن يرسل لقتاله محمد بك بجيش من مصر بالاتفاق مع ظاهر العمر وأخبر عثمان باشا الدولة بذلك فأرسلت تقول له متى حضر محمد بك فاطلب الاجتماع به سرًّا وبلغه الأمر وعرفه غروره وغرور سيده علي بك بخروجه على الدولة وأن سيف الدولة طويل ولا بد أن تنتقم من عدوها وإن طال الأجل وأنه إذا كان محمد بك يريد صفو خاطر الدولة عليه يجب أن يقوم على علي بك ولا يجعل له مولى غير السلطان صاحب الشأن الأعظم وهو يوليه على مصر مكان علي بك برتبة قائمقام له.

فلما رأى محمد بك الخط الشريف اعتمد عليه وعول على الرجوع إلى مصر وبعد أن لبث هناك أيامًا قليلة ارتاح رجاله فيها إذن بالرحيل والناس لا يعلمون سببًا لذلك[1].

---

(١) من المتفق عليه عند ثقات المؤرخين المعاصرين أن محمد بك حارب عثمان باشا المذكور وأخرجه مهزومًا من دمشق إلى حمص مع سائر الباشاوات أعوانه واستولى على دمشق وقلعتها بعد حصارها. قال الخوري مخائيل بريك الدمشقي وهو ثقة في تاريخ دمشق في ذلك العهد لأنه شاهد عيان: ثم في سنة ١٧٧٢ تقوى ظاهر العمر وشاع اسمه ونهب جبخانة عثمان باشا والي الشام ولما طلع الباشا للمزيريب ركب عليه ظاهر وأراد ينهب الحجاج ويأخذ المحمل ويقتل الوزراء لكن ما سمح الباري بذلك فتخربطت الدروب وتبشللت البلاد وتعطل السبب بالبيع والشراء وفي غيبة الحاج حضر

وقيل انه اشمأزت نفسه من علي الظاهر الذي كان يدخل عليه بدون استئذان

الشام. فأضروا الشام والبلاد بغير فائدة ولما رجع الباشا من الحجاز إلى دمشق أقبلت العساكر المصرية نحو الديار الشامية مرسلة من طرف علي بك صحبة محمد بك أبو الذهب ومعه عسكر ظاهر العمر والمتاولة وكان ذلك العسكر جرار كالبحر الخزار بنحو مائة مدفع ونزلوا بوطاقهم عند ثغرة كوكب وفي ذلك النهار عثمان باشا وزير الشام طلب من النصارى جملة مال لأجل العساكر فجمع من ضحوة نهار إلى الظهر ما ينيف عن ثلاثين ألف غرش مساكين النصارى. وفي الغد خرجت الوزراء والعساكر الموجودة في دمشق مع العساكر الشامية الذي جملتهم ما ينيف عن مائة ألف وصار الحرب في سهل داريا وما استقام قدام العسكر المصري ساعتين وانهزموا مكسورين ودخلوا المدينة مغلوبين. وفي الليل هرب وزير الشام وباقي الوزراء وتلك العساكر نحو حمص وحماه وتلك البلاد وأصبحت الشام بالذل والهوان وقام العسكر المصري ونزل بأرض القدم فوق باب الله وهجم على الشام بالسيف وملكها ونهب وحرق بعض محلات الميدان. وفي الغد خرجت الموالي الأشراف والأكابر خاضعين وسلمته البلد راغمين فطلب منهم تسليم القلعة فقالوا له هذه قلعة السلطان وداخلها وجاق القبيقول وليس لنا حكم عليها بوجه ما. فاجابهم أنا أملكها بقوة السيف وفي الحال وجه المدافع والقنابر عليها فأخرجوا له المحمل ونصبوه فوق سور القلعة فلما نظروا المحمل كفوا الضرب والحرب عنها ودخلت الغز وعساكر مصر إلى المدينة تبيع وتشتري وصار الناس في أمان وأتت حكام الأقاليم خاضعة إلى محمد بك أبو الذهب وهو يطمنهم ويخلع عليهم ولم يحدث من العساكر المصرية ضرر كليًا. وفي اليوم الخامس عشر من وصوله وقف متسلم الشام وآغا الانكشارية ونادى بالأمان وهدم خيامه ورحل راجعا إلى مصر. الله لا يمتعه بالسلامه. وما عرف أحد سبب رحيله ورجوعه. وتوجهت السعاة تبشر بذهابه فعادت الوزراء والعساكر الشامية إلى أوطانهم وكل منهم يهني رفيقه بالسلامة وحضر معهم الأمير يوسف بن شهاب حاكم الشوف بعساكره والدروز صار لهم صيت وتنمورا على الدمشقيين وحصل منهم ثقلة وبهدلة للمسلمين حتى صاروا يدخلون الدروز النصارى إلى جامع الأموي بزرابيلهم وتنومسوا النصارى قليلا وبعد كم يوم رجعوا إلى أوطانهم فحينئذ ظهرت الزرباوات وتنمروا على المساكين النصارى ووقع البلص والعوان والظلم والعدوان شيء لا يوصف حتى إن نصارى كثيرين دشروا بيوتهم وأخذوا حريمهم وأولادهم وفروا هاربين إلى الجبل والبقية اختفوا في البيوت وكانت تلك الأيام تبكي. الله يساعد النصارى. ثم إن الوزير عثمان باشا قبض على ابن جبري آغا الانكشارية وخنقه وريح العالم من ظلمه وفي أيام قلائل صارت دار الظالمين خرابًا

ولا يقدم له الاعتبار المعتاد عليه من كبار سناجق الغز وكان يجلس متكئًا بجانبه كأنه في قومه كأحد العربان لا في مجلس سلطاني.

فالتزم علي أن يرجع إلى والده بعساكره وأخبره برحيل محمد بك إلى مصر بعد أن فتح دمشق واستولى عليها. وكان ذلك بحضور وزيره إبراهيم الصباغ. فقال المذكور لظاهر يا مولاي الشيخ إن غز مصر لا يمكن أن يوثق بهم وانظر في تواريخ ملوكهم من أول نشأتهم إلى اليوم فإنها سلسلة خيانات وغدر فإن شئت وقبلت كلامي ينبغي أن تدعهم وشأنهم وعالج الأمور بمهادنة الدولة بالصلح والسلام معها.

فقال له ظاهر وما ذنب علي بك والخيانة من ولده محمد بك ولكن اكتب إلى علي بك وخبره بما فعل ولده واستخبر منه عن سبب ذلك فكتب إليه وأتى الجواب منه بأن محمد بك خرج عليه وانه عازم على تأديبه والانتقام منه وشجع ظاهر وحثه على الثبات فيما عزم عليه بقتال عثمان باشا مع المتاولة إلى أن يفرغ من أمر تأديب محمد بك والانتقام منه.

فلما وصل هذا الجواب إلى ظاهر قال لإبراهيم فما عذري عنده إذا هادنت الدولة أو عثمان باشا وكأني بما ادفعه لها لترضى حرقت مالي وبلادي بيدي وأهلكت نفسي إذ ترسل لي علامة الرضا اليوم وغدًا ترسل أمرا بقتالي واغتيالي. لا والله لا أرسل للدولة مالًا إلا مال العادة سواءً رضيت علي أم غضبت وفي كل حال يجب أن نتوقع الفرج من الله تعالى.

القتال على صيدا

ولما رجع عثمان باشا إلى دمشق أرسل أخرج من الدولة فرامانات باسم وزير

حلب وباشا طرابلس وصيدا والقدس وأمير الدروز بأن يقوموا برجالهم معه على قتال ظاهر وأن يكونوا كلهم بطاعته واجتهد بل بذل غاية جهده بأن تكون هذه التجريدة القاضية على ظاهر ولهذا حث الدروز وشدد الأمر عليهم ليجردوا من رجالهم ما استطاعوا وترك لهم مقابل ذلك لنفقة العسكر مال الميري عن ثلاث سنوات.

غير أن وزير حلب اعتذر عن الحضور بذاته لكنه جرد عسكرًا كبيرًا وجعل قائده خليل باشا وزير كركوت واجتمعوا كلهم بجوار صيدا وهم عثمان باشا بعساكره الشامية وعساكر حلب وابنه محمد باشا طرابلس وابنه الثاني درويش باشا صيدا وباشا القدس بعساكرهم نحو أربعين ألفا عدا الدروز وعليهم الشيخ علي جنبلاط [١] ثم تقدموا إلى صيدا واستولوا عليها فهرب منها حينئذٍ ابن محيي الدين وبلغ ذلك ظاهرًا فأرسل جمع إليه أولاده ومشايخ المتاولة والمغاربة وأتى بهم والتقى بعسكر الدولة على الحارة وهي من ضواحي صيدا وانتشب القتال هناك نحو ثلاث ساعات فانكسر عسكر الدولة وقتل من الدروز مقتلة عظيمة واستولى ظاهر على صيدا أيضا وجعل فيها نائبًا عنه الدنكزلي وحصنها تحصينا قويًّا.

وبعد هذا اجتمع الدروز بعثمان باشا ومن كان معه من الباشاوات والعساكر ورجعوا فحطوا على صيدا وحاصروها فعاد ظاهر إليهم برجاله وكان الدروز والوزراء بعساكرهم على جسر نهر الأولي وهناك كانوا واضعين مدافعهم فغافلهم علي الظاهر مع الشيخ ناصيف بستمائة فارس وهجموا عليهم واستولوا على المدافع وأمروا الطبجية فأداروها على العسكر وما أطلقوها عليهم حتى ولوا كلهم منهزمين

(١) راجع تاريخ الأمير حيدر صفحة ٨٤٩ وما يليها

فتبعهم علي وناصيف بالخيل الطراد[١].

وإذ جمعوا شملهم وعادوا إلى الحرب رجعت خيل ظاهر واشتد الحرب بينهم؛ لأن الدالي خليل باشا رد هزيمتهم وأرجعهم إلى القتال وأظهر من الفروسية والرجولية ما ليس بالحسبان وكان من الفرسان المشهورين الأشداء ولما رأى علي أنه أكثر القتل بأصحابه وأنه لولاه لكانت تمت الكسرة على عثمان باشا وأصحابه تقدم إليه وحرر الزراقة عليه وهدفها فما أخطأت صدره فوقع عن جواده يخور في دمه ثم تقدم وقطع رأسه وأوقع أتباعه في الدالاتية[٢] فقتلوا منهم كثيرا وهرب عثمان باشا وسائر الباشاوات بمن معهم وكذلك الدروز وغنموا جميع أسلابهم ولبس أتباع علي ثيب الدالاتية وأتوا دير المخلص قصد زيارته فرحين بنصرهم ووقع الرعب في قلب الدروز والشوام من اسم علي حتى صاروا يضربون المثل باسمه الرهيب المرعب.

وفي هذا العام وصل إلى ظاهر من ابنه عثمان وهو في مصر القصيدة الميمية يشكو له ألم الغربة ويستميح منه العفو وقد بلغه ما ناله إخوته في مواقع صيدا من عز الانتصار وكثرة الغنائم ويقول له فيها:

هبنـــي أســـأت ومـــا أســـأت ... فـــأين عفـــوك والكـــرم
أعطيـــت كـــلًّا حظـــه ... وجعلـــت حظـــي في الـــنقم

---

(١) ومما فات المؤلف ذكره في بيان سبب هذا النصر المبين مساعدة المراكب المسكوبية بحرًا للشيخ ظاهر ومساعدة مماليك علي بك لرجاله في البر. راجع تاريخ الأمير حيدر صفحة ٨١١ وأسفار فولنيه المجلد الثاني صفحة ١٨ إلى صفحة ٢٣.

(٢) لم يذكر أحد من المؤرخين سوى المؤلف أن الدالي خليل باشا كركوت قتل في هذه المواقع غير أننا وجدنا في بعض المراسلات القديمة وفي بعض التعاليق المخطوطة أن عثمان باشا الوكيل أو الصادق قتل في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١١٨٥ هجرية سنة ١٧٧٢ وجعل مكانه محمد باشا العظم حفيد إبراهيم باشا ابن أخي أسعد باشا

فرقّ له ظاهر وأرسل إليه نعمًا وهدايا وأرسل إلى علي بك يلتمس منه التوسع له فأجابه علي بك بأنه يقيم عنده بمقام مدبر ومشير إلى أن يرى فيه رأيه.

بيروت

ثم إن ظاهرًا صمم عزمه على أن يأخذ بيروت من الدروز انتقامًا منهم وقصاصًا له عمّا ظهر منهم بالانتصار لعثمان باشا[1] وتضييقًا عليهم في رزقهم ومعاشهم؛ لأن حبوب جبل الدروز وأكثر حاجاتهم يأخذونها من بيروت وصيدا؛ لأن الجبل لا يغل لأهله سوى الحرير. وصيدا صارت في حوزته ويده ومن ثم عوّل على أن يستولي على بيروت وأرسل يطلب من الدولة تقريرها فأرسلته له ثم أرسلت إلى الدروز تشدد عليهم الأمر بمدافعته ومقاومته.

فلما بلغهم أمر الدولة باسم الأمير يوسف شهاب الحاكم فيهم كان أحمد بك الجزار متعينًا فيها من قبله بإيعاز وزير الشام[2] وكان الجزار من أصحاب السناجق

---

(١) نظن أن المراد به عثمان باشا المصري الذي لسبب هذه الحروب بين عثمان باشا الصادق وأولاده وأتباعه وبين ظاهر العمر وأولاده وأتباعه من المتاولة وغيرهم أرسلته الدولة إلى الشام مع لقب صاري عسكر أو سر عسكر عام وفوضت إليه أن يعزل ويعين الوزراء الحكام سنة ١٧٧٢ في الوقت الذي كان وزيرًا لدمشق محمد باشا العظم وخلفه مصطفى باشا البباكجي وقد أشار إلى هذا تاريخ الأمير حيدر في صفحة ٨١١ بعبارة مشوشة بعد قوله عن سالفه عثمان باشا الكرجي أنه توفي في تلك السنة سنة ١١٨٥ (راجع الخوري مخائيل بريك بكلامه عنه في سنة ١٧٧٢).

(٢) كان في سوريا وفلسطين في تلك الأيام حزبان كبيران يتنازعان السلطة والنفوذ في هذه البلاد التي يدعوها الأتراك عربستان وكانت الحرب بينهما لا تنقطع إلا نادرًا فكان في الشرق حزب الأتراك ورأسه عثمان باشا وزير الشام وأتباعه وزراء الدولة في صيدا وطرابلس والقدس وحلب وبغداد والموصل وغيرها وهو يمثل رجال الدولة ويدعوه الوطنيون حزب الباشاوات وكان الحزب الثاني في

عند علي بك في مصر وقد فرّ من هناك لأمر فعله راب علي بك فأراد أن يغتاله ففر وأتى إلى لبنان وأقام في حمى الأمير يوسف وضيافته في دير القمر فرأوا منه كل دهاء وبأس ولهذا رضي الأمير يوسف أن يكون في بيروت نائبًا عنه لكي يحصنها ويحميها

جبل عامل وأكثر قبائل العرب الرحل ويناصره علي بك الكبير بماليكه من مصر وله من القلاع القديمة والحصون المنيعة ومن رجال البأس الشجعان ما لا تقدر عليه قوة الدولة بعساكرها المأجورة مهما كثروا.

وكان كذلك مشايخ جبل نابلس حكام غزة ويافا والرملة والخليل منقسمين فيما بينهم فريق منهم مشايع لحزب الأتراك وفريق مشايع لظاهر كما يظهر من تعاقب الفتن التي وقعت في هذه البلاد وأوجبت حضور الشيخ ظاهر برجاله لقتال عثمان باشا ومشايعيه فيها.

وكذلك كان حال لبنان حينئذ إذ كان في مركزه الحصين بجباله والعزيز برجاله متوسطًا بين عكا والشام كأنه قبة ميزان سياسة تلك الأيام بين رجال الحزبين المذكورين وكان قد تلاشى تماما الانقسام القديم فيه بين الحزب القيسي واليمني ولم يكن قد ظهر تماما الانقسام فيه بين الحزب الجنبلاطي -الذي زعيمه الشيخ علي جنبلاط- وبين الحزب اليزبكي -الذي عماده الشيخ عبد السلام عماد- وقد قضت حينئذ سياسة الضعف وحب التأمر بانقسام بيت شهاب أمراء لبنان فإن الأمير يوسف ابن الأمير ملحم شهاب استعان بعثمان باشا وأولاده لأخذ حكم بلاد جبيل بتدبير مربيه الشيخ سعد الخوري صالح الماروني وإيعاز الشيخ علي جنبلاط ثم صار ينازع عمه الأمير منصور على حكم بلاد الشوف حتى اضطر هذا أن يتفرغ له عن الحكم ويترك دير القمر وأقام في بيروت معتزلًا بالظاهر فقط أمر الحكم ومن ثم كان مواليا للمتاولة وظاهر العمر ولخوف الأمير يوسف من عمه على بيروت قبل أن يكون متسلما فيها من قبله أحمد بك الجزار بإيعاز عثمان باشا المصري بحجة حمايتها وصيانتها من مراكب المسكوب التي بإيعاز الشيخ ظاهر أتت إلى بيروت أول مرة بعد موقعة صيدا السابق ذكرها ولم يقدر الأمير يوسف أن يخرج الجزار منها لا بالقوة ولا بالسياسة لدى عثمان باشا الذي رفض أن يأمر الجزار بالخروج منها ولذلك اضطر الأمير يوسف أن يصالح الشيخ ظاهر عملًا بمشورة عمه الأمير منصور لكي يناصره على إخراج الجزار من بيروت ولولا مشاركة رجال ظاهر لرجال الأمير يوسف بحصارها برًا مع حصارها بحرًا من مراكب المسكوب الموالين لظاهر لما كان خرج الجزار منها ولكنه عندما ساعد الحظ الجزار وصار وزيرًا لعكا أخذ بيروت وكان حظ الأمير يوسف في يده القتل شنقًا على باب عكا.

من المسكوب الذين كانوا يجولون بمراكبهم حينئذٍ في تلك النواحي فدخل إليها الجزار في ثلاثمائة نوتي من أعوان الأتراك ورمم سورها وقلعتها وأبراجها وحصنها تحصينًا قويًا فأرسل ظاهر حاصره فيها أو حاول حصاره فيها فلم يقدر أن يأخذها[1] فتركها وشأنها معه وجعل يترقب لذلك الأسباب والحوادث.

خيانة وغدر المماليك

ثم أن أبا الذهب كتب إلى الدولة يعرفهم بطاعته وخضوعه لأوامرها السابقة له على يد عثمان باشا وعزمه بالخروج على علي بك وطلب فرمانًا بأن كل من ينضم إليه بالخروج على علي بك يكون آمنًا على حياته وعلى كل ما يكون في يده فأرسلوا له ذلك كما طلب.

ثم ساعده الحظ ونجا من يد علي بك الذي قصد أن يغتاله وفر إلى الصعيد مع بعض رجاله وأخذ ينضم إليه وإلى أتباعه كل من كان قد شردهم علي بك ونفاهم وسلب نعمتهم وصار هو يواسيهم ويعتذر إليهم عما سلف منه وينعم عليهم حتى صار مجموعهم قوة ذات بأس وشأن عظيم.

فأرسل علي بك تجريدة قوية إلى الصعيد لقتاله واغتياله وعليها إسماعيل بك رفيقه السابق وشريكه في المؤامرة عليه في دمشق وحين صار مقابل محمد بك انضم إليه مع السناجق الذين كانوا معه بعد أن أغراهم وأراهم فرمان الدولة بالعفو عنهم وتقرير ملك ما في أيديهم إذا خرجوا على علي بك وانضموا إلى محمد بك.

---

(١) ربما كان مراد المؤلف بهذا الإشارة إلى حضور المراكب المسكوبية إلى بيروت أول مرة ورجوعها عنها [illegible] بعض أبراجها [illegible]

فلما بلغ علي بك أمر هذه الخيانة من إسماعيل بك عقد ديوانًا من أهل مشورته من السناجق والكشاف في مصر وعولوا بالاتفاق معه على قتال العصاة إلا أنه بعدما وصلت إلى مصر مكاتيب محمد بك بأمر الدولة يخوفهم بها من انتقامها ويحثهم على ترك علي بك والاتحاد معه أجابه البعض من أصحابه بأن علي بك عازم أن يجهز بهم تجريدة ليخرجوا لقتاله ومرادهم أن يماطلوه بالخروج إلى أن يتيسر لهم القبض عليه واغتياله في فرصة مناسبة فاستحسن ذلك منهم محمد بك.

فرار علي بك إلى عكا

وكان عثمان ابن ظاهر عند علي بك في مصر كما قدمنا فشاوره في أمره وحسّن له عثمان السفر إلى عكا وأراه أن هناك بلادَ خيرٍ وأن أباه ظاهر يقدر أن يجيش له عسكرًا يعود به إلى مصر ويستولي عليها فتجهز علي بك وخرج من مصر قاصدا عكا ومعه عثمان المذكور وكاتبه المعلم رزق القبطي وكان المذكور مشهورًا عنه بأنه خبير بضرب الرمل والزير ويعتمد علي بك عليه ولا يقدم على عمل إلا برأيه وخرج معه بعض السناجق من خاص أتباعه برجالهم وأتباعهم وفيهم علي بك الطنطاوي.

ولما وصل علي بك إلى يافا كتب إلى ظاهر يخبره بقدومه فقام هذا وحضر إلى يافا لاستقباله والسلام عليه ولما دخل عليه وجده كئيبًا منكسف البال جدًّا ولما شاهد ظاهرًا بكى حتى أبكاه فعزاه ظاهر ووعده بكل مساعدة ومن شدة الغم الذي استولى حينئذ عليهما مع تعب الجسم من السفر واضطراب البال مرضا كلاهما لكن اشتد المرض على ظاهر حتى أشرف على الموت فأرسل طلب وزيره وحكيمه إبراهيم الصباغ من عكا فحضر سريعًا وعالجه حتى شفي من مرضه.

ثم اجتمع ظاهر وإبراهيم المذكور وعلي بك وتشاوروا في أمره فاتفق رأيهم على

أن يكتب علي بك للسناجق في مصر ويعدهم بكل خير ليكونوا معه على محمد بك الكافر بجميل ولي نعمته وأنه راجع إلى مصر بقوة بعدما يتم له تجهيز حملة عظيمة من رجال ظاهر.

عودة القتال على بيروت

وكان لم يزل ظاهر مصممًا عزمه على أخذ بيروت من الجزار والأمير يوسف قد عجز عن إخراجه منها إذا عصي عليه وتمرد فيها فكتب الأمير يوسف بذلك إلى ظاهر يستعين به عليه فأجابه ظاهر إذا قبلت أن تكون لي بيروت فأنا أخلصها من يد الجزار فأجابه إلى ذلك الأمير يوسف وقال له: الأفضل أن يأكلها السبع ولا أن يأكلها هذا الكلب. فأرسل ظاهر وحاصرها لكنه لم يقدر أن يأخذها حتى كاده أمر الجزار فيها.

وكانت مراكب المسكوب لم تزل تجول في البحر في تلك النواحي فشاور ظاهر وزيره إبراهيم الصباغ بأمر الاستعانة بها على أخذ بيروت فاستصوب هذا إبراهيم وأرسل لذلك أحد المقربين والمنتمين إليه وهو القس سمعان الصباغ وكان هذا ذا دهاء وعلم ويتكلم بلغات اليونان والأفرنج عدا لغته العربية فاتفق معهم وبرزت الأوامر إلى الكونت جواني وأحضرها معه وحالًا أقبلت المراكب على بيروت وشددوا الحصار عليها بحرًا وكانت عساكر ظاهر تحاصرها برًا حتى تضايق الجزار وسكانها من ذلك وطلب مهلة لتسليمها فأعطوه ثلاثة أيام فقط جمع فيها أمواله وأمتعته وأرسلها مع أهل بيته إلى مأمن عند أحد أصحابه بعد أن اشترط لنفسه عليهم أن يدعوه يخرج آمنًا على حياته وأمواله وأمتعته ومن ينتمي إليه من أهل بيته وأتباعه بضمانة أحد أصحابه من مشايخ الدروز حسين تلحوق فأجابوه إلى ذلك

وحضر حسين تلحوق ووقف برجاله وأقاربه في بوابة بيروت وتسلمه ودخلت إليها عساكر ظاهر واستولت عليها سنة ١٧٧٣ [١].

ثم إن حسين تلحوق رأى أن قلوب الأمراء والمشايخ شديدة الغيظ على الجزار خاف أن يمسوه بأذى وهو نزيل عنده ومقام النزيل في لبنان عزيز جدًّا فكتب إلى ظاهر وأحضر له أمانًا منه فلما حضر سلمه إلى الجزار وسار به إلى عكا مع أتباعه فأراد ظاهر أن يوقع به تشفيًا منه على ما بدا سابقًا منه وشاور بذلك وزيره فقال له إبراهيم حاشى مولانا الشيخ أن يعطي أمانًا إلى نزيله ويقتله فانتخى ظاهرًا وأحضر الجزار وخلع عليه وبعد مدة أرسله إلى القدس متسلمًا ونائبًا فيها عنه وقصد بذلك أن يجعله أسير فضله وولي نعمته.

فمضى الجزار إليها برجاله وفيما كان في الطريق وجد بين يافا والرملة قطارًا من مكارية وبغال عليها ذخيرة وجبخانة لظاهر هجم عليهم بأتباعه وقتلوهم وساقوا البغال بما كان عليها إلى دمشق حيث باعها وأخذ ثمنها ومضى إلى إسلامبول.

وكان عثمان ابن ظاهر قد رجع إلى ولايته بشفاعة علي بك وأخذ يكتب إلى أصحابه الدروز في لبنان يعيرهم على تركهم بيروت تذهب من يده وفيها دورهم وأملاكهم وقبور أبائهم وأجدادهم فتحرك الدروز وتحمسوا وقالوا الموت لنا خير من الحياة بهذا الذل وكيف نترك بيروت تخرج من يدنا وفيها دورنا وقبور آبائنا وأجدادنا وفيها عزنا وشرفنا ثم اتفقوا وجمعوا رجالهم وساروا على صيدا وبلغ ذلك

---

(١) يوهم كلام المؤلف أن ظاهرًا استولى على بيروت لما أخرج الجزار بقوة مراكب المسكوب وأن رجاله انفردوا بحصارها برًّا وحقيقة الواقع التي يقررها التاريخ أن الأمير يوسف استولى عليها حينئذ وقد اشترك بحصارها في البر رجاله مع رجال الشيخ ظاهر بعد اتفاق الفريقين على ذلك الذي عقد بينهما

ظاهرًا فأرسل عليهم تجريدة على رأسها ابنه علي فالتقاهم في سهل صيدا أو ضواحيها فقاتلهم هناك وكسرهم شر كسرة وذبحهم ذبحة ما نجا سالمًا إلا من كان طوي العمر.

تأهب الحملة على مصر

ولما راقت الحال لظاهر وارتاح باله بعض الارتياح من جهة رجال الدولة والدروز عزم على أن يجهز لعلي بك تجريدة كبيرة يعود بها إلى مصر فاجتمع به مع إبراهيم الصباغ وزيره وسألاه ماذا يريد وماذا يطلب ليقدموا له مطلوبه من الرجال والأموال.

فقال لهم علي بك: من جهة الرجال فلا احتاج إلى عسكر كبير؛ لأنه حضر لي مكاتيب من سناجق مصر وكلهم معي يد واحدة على محمد بك وعرفوني أنهم حالما تظهر أعلامي لهم حيث هم في الصالحية ينضمون إلينا متحدين معنا. وأما من جهة المال فإني محتاج إلى مبلغ كبير.

فسأله ظاهر كم المبلغ الذي تحتاج إليه وتطلبه فقال له علي بك نحو عشرين خزنة.

فلما سمع ذلك ظاهر استبهظ هذا المبلغ وقال له أقدر أن أجرد لك من رجالي نحو مائة ألف وأجعل أولادي قوادًا ومن جهة المال المطلوب فسأبذل جهدي بإعداده وتجهيزه.

ثم تلطف إبراهيم وسأل علي بك أن يطلعه على مكاتيب سناجق مصر له فأخرج علي بك رزمة مكاتيب وأراه إياها فقرأها إبراهيم واستوعب كل ما فيها ولما فرغ من

تلاوتها سأله علي بك ماذا رأيت فيها.

فقال له إبراهيم هل يعتبر مولاي البك كلامي ويثق بصدقي وإخلاصي له حتى أقول له رأيي فيها.

قال له نعم ولولا ذلك لم أسألك هذا السؤال. فقال له إبراهيم إن سمعت مني فلا ينبغي أن تثق بها وتصدقها ودع مولانا الشيخ يجرد لك ما يقدر عليه من الخيل لأن هذه المكاتيب مقصود بها الخداع ولا بد أن تكون قد كتبت كلها بعلم محمد بك وبإيعازه والبرهان على ذلك أنها كلها بمعنى واحد ونفس واحد ونص المكتوب الواحد منها لا يختلف عن الآخر ولذلك أرى أنها أرسلت بإيعاز محمد بك ليخدعك بها. وكان الأمر الواقع حقيقة هكذا لأن السناجق حينما وصلت إليهم مكاتيب علي بك التي أرسلها إليهم يعدهم فيها بكل خير إذا اتحدوا معه على محمد بك أوقفوه عليها؛ لأنه صار صاحب الدولة والصولة في مصر ولما قرأها دعي إليه كاتبه فحرر بأمره هذا الجواب وأمر أن تُؤخذ عنه عدة نسخ يمضيها كل واحد من السناجق كأنها رسالة خاصة منه وأن ترسل كلها إلى علي بك فكتبت هذه النسخ وأمضاها السناجق هكذا بدون تبديل ولا زيادة ولا حذف شيء مهم ومضمونها كلها التشديد عليه بسرعة العودة إلى مصر.

فلما سمع علي بك كلام إبراهيم ضحك وقال له هذا ظن السوء من العاقل الفطن لكن أنا أخبر منك بأولادي وأهل بيتي. وما قدر إبراهيم أن يجترئ بأكثر من هذا على مجادلته وخرج مع ظاهر واجتمع به سرًا وأول ما قاله له أني أرى الرجل مغرورًا وجماعته ومن شيمتهم الخيانة والغدر فالحذر يا مولاي من المداخلة بأمورهم. فقال له ظاهر: سلطان عظيم الشأن خانه الزمان واستنجدنا أما ينبغي لنا أن نساعده وننجده.

فقال له إبراهيم يا مولاي روحي إذ طلبها أقدمها له إذا أردت.

فقال له الشيخ: ما عندي شك بذلك ولكن أنت تعلم أني الآن خالٍ من المال اللازم لذلك لإحاطة أولادي بي مع الحروب التي قمنا بها وكيف العمل في تدبير ما طلبه علي بك وهو نزيل عندنا وعزيز ولا يمكنه أن يعود إلى مصر راضيًا مسرورًا إذا لم نجهز له مطلوبه.

فقال له إبراهيم يمكنني إذا حرقت نفسي أن أجهز له هذا المبلغ أو ما هو أقل من مالي ومما يتسر لي أن استلفه من أصحابي كرامة لك وحبًّا بك يا مولاي لكن كيف استوفيه منه.

فقال له ظاهر أنا أتكلم معه بهذا الشأن حتى يكون المال في حرز أمين تقدر أن تستوفيه ثم اختلى ظاهر بعلي بك وكلمه بذلك فقال له علي بك أضع رهنًا عنده خنجري المجوهر وسيف يوسف[1]، واكتب له سندًا بماله وبها أرهنه عنده ومتى دخلت مصر إن شاء الله تعالى ارجع له المال وآخذ الرهن منه حينئذٍ دعا ظاهر إبراهيم وأخبره بما قال له علي بك.

وقصد هذا أن يهون عليه تجهيز هذا المبلغ فقال له: أنا لا أطلب ذلك نقدًا بل تستطيع أن تقدم لنا ما تحتاج إليه الحملة من خيل وعليق لها ومأكول وكسوة للعسكر وغير ذلك.

فقال له إبراهيم يا مولاي ليس علي إلا تقديم المال وإما تقديم احتياجات الحملة

(١) المراد بسيف يوسف سيف يوسف بن أيوب المشهور بصلاح الدين الأيوبي وكان علي بك يحفظ سيفه ويفتخر به كثيرًا كما كان يفتخر بالخنجر الذي صاغه لنفسه مرصعًا بالجواهر بما تبلغ قيمته ٢٢٥٠٠٠ فرنك ذهب [illegible] صفحة ١١٣

فلا أقدر أن أرضى به على نفسي وعندك حضرة المعلم رزق كاتبك فهو يقبض المال مني ويشتري ما تحتاج إليه الحملة.

لأن إبراهيم خاف أن يقال عنه أنه اشترى ما هو بمائة وحسب ذلك بزيادة.

وخرج من عند علي بك وهو يحذره من مكاتيب السناجق ولهذا رجع وكتب لهم مرة ثانية ليكون على ثقة من أمرهم بموالاته فأرسلوا له الجوابات مؤكدين له موالاتهم واتحادهم معه بالأقسام المعظمة بأنه حالما تظهر له أعلامه يتركون محمد بك وينضمون إليه. لكن ما زال إبراهيم على ما كان عليه من الشك بصدقهم واليقين بقصدهم الخداع له والإيقاع به وما زادته أقسامهم إلا يقينًا بذلك وقال له وحياة رأسك يا مولاي ما هذا إلا خداع ولا أقدر أن أقول لك غير هذا وبعد ذلك رأيك الأعلى. ولبث علي بك على رأيه وعزمه ولم يحفل بكلام إبراهيم ونصحه له.

وكان ظاهر قد عزم أن يجرد له تجريدة عظيمة بنحو مائة ألف من أولاده وأقاربه ومن أهل بلاد صفد والمتاولة وعرب الصقر والصبيح والمغاربة والدروز وغيرهم فأبى علي بك أن يكون معه سوى ثلاثة آلاف فقدمهم له ظاهر وجعل قائدًا عليهم ابنه البكر صليبي وقدم له إبراهيم أربع عشرة خزنة من المال استلمها بواسطة المعلم رزق كاتبه وأعطاه تعهدًا كتبه قاضي يافا وسلمه الخنجر والسيف المقدم ذكرهما ولم يقدر أن يجهز له أكثر.

سير الحملة وعاقبة الغرور

وبعد أن ودع علي بك لظاهر وإبراهيم سار بعسكره هذا إلى مصر وكان في كل مرحلة بطريقه ترد إليه مكاتيب السناجق من مصر يطلبون سرعة عودته إليهم

ويقسمون له الأقسام المغلظة بأنهم كلهم معه يدًا واحدة ليكون مطمئن البال ولا يخامره أدنى شك بكلامهم.

وقبل أن يصل إلى الصالحية قسم رجاله إلى كتيبتين إذ كانت خيل ظاهر ورجاله عليها صليبي ابنه كتيبة لوحدها وكانت سناجقه ومماليكه وأتباعهم كتيبة ثانية وهو رأسها في المقدمة.

وكان محمد بك قد خرج إليه من مصر بسناجقه ومماليكه ولما وصلوا إلى الصالحية وجدوا غبار الخيل يرتفع أمامهم أيقنوا أنها خيل علي بك فانقسموا إلى ثلاث كتائب وبعد أن رتبوا صفوفهم هجموا عليهم هجمة واحدة فأوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرين.

وكان علي بك على رأس رجاله متلثمًا بشال كشمير تنكرًا فهجم عليه محمد بك وقد عرفه إذ قرب إليه وضربه ضربة قوية فصاح من شدة الألم قتلتني يا ولدي وأن يظن أنه قادم إليه برجاله لاستقباله لا لقتاله فنزل محمد بك عن جواده وأخذ يقبل يديه ويعتذر إليه تجاهلًا ثم أنزله عن جواده واحتضنه ثم أمر بحمله إلى مصر في تخت روان وأنزله في داره على بركة الأزبكية وأمر الحكماء والجراح بمداواته لكن بعد ثلاثة أيام مات مسمومًا سنة ١٧٧٣ وخلت مصر بعد موته لمحمد بك.

وأما صليبي وفرسانه فإنهم قاتلوا حتى هلكوا جميعًا؛ لأنَّه ماذا يستطيعون أن يفعلوا مع عشرين ألف فارس من الغز من أشداء الرجال. وأما المعلم رزق فما وقف أحد له على خبر ولا ظهر له بعد هذه الموقعة أدنى أثر.

الحملة على عكا

ولما بلغ ظاهرًا خبر قتل ابنه صليبي وعلي بك وهلاك رجال الحملة اغتم جدًّا وأقام أيامًا في بيته كئيبًا حزينًا حائرًا في أمره.

وكان من حين مجيء علي بك إلى يافا قد امتنع عن إرسال مال الميري إلى الدولة بإيعاز علي بك فكتب حينئذ يعتذر لهم بأن علي بك أوجب عليه مساعدته قهرًا وأنه لم يكن يقدر أن يدافعه أو يقاومه وأرسل الميري عن سنة ١٧٧٢ ووعد بتجهيز الباقي فأرسلت له الدولة كعادتها الجواب بقبول عذره والرضا عنه وشددت عليه بسرعة إرسال المال الباقي.

وإذ خلت مصر لمحمد بك بعد موت أستاذه كتب إلى الدولة يخبرها بما أحب من أمر اتفاق أستاذه مع ظاهر العمر والتمس الأمر بالذهاب إلى عكا لتأديبه وإرجاع البلاد وأهلها إلى طاعة السلطان وكان هذا غاية ما ترغب وأرسلت له الأوامر اللازمة وأنعمت عليه أن يكون وزير مصر بلقب باشا لكن لم تصل له هذه الأوامر إلا وهو على باب عكا.

وإذ كان عثمان ابن ظاهر يعرفه سابقًا وعلم ما في نفسه من الحقد على والده وأنه عازم على قتاله أخذ يكاتبه سرًّا ويحرضه على سرعة القدوم ويعرفه بعيوب والده وفراغ يده من المال وقلة الرجال بعدما جرى له من المواقع والحروب الكثيرة في الصالحية ويافا وصيدا وغيرها وهو يبتغي أن يكون بذلك مقربًا إلى محمد بك وينال ثقته ليجعله بمكان والده شيخ مشايخ بلاد صفد ومن ثم أخذ محمد بك يجهز تجريدة عظيمة على ظاهر لينتقم منه على مناصرته لعلي بك ومساعدته له بالحملة ولم يزل

حاقدًا عليه فيما كتبه سابقًا إلى علي بك عنه بعد عودته عن الشام.

ولما أتم أبو الذهب تجهيز الحملة أمر بها فسارت في أوائل محرم سنة ١١٨٩ برًّا وبحرًا بجميع المهمات والمدافع الكبيرة وكانت في هذه المدة ترد إلى ظاهر أخبار مصر تنبئه باستعداد محمد بك لقتاله فأرسل إلى نسيبه كريم الأيوب نائبه في يافا يحذره ويحثه أن يزيدها تحصينا بعدد الرجال وعِدد القتال وكان أكثر العسكر الذي فيها عند كريم من المغاربة وهم الذين قدموا إليها معه عندما فتحها واستولى عليها سابقًا مع علي بك.

فتح يافا

وبعد أن جاء أبو الذهب إلى غزة واستولى عليها بدون قتال لكونها غير حصينة أسرع إلى يافا وهي ذات سور وأبراج وحصون قوية فحاصرها وضيق على أهلها وأقام على حصارها نحو سبعة أشهر ولم يقدر أن يستولي عليها وأبى أن يتركها قبل أن يفتحها وإذ كان في عسكره كثير من المغاربة وبلغه أن يتقدموا سرًّا إلى السور ويتقربوا إلى مغاربة يافا بكل حيلة ويعدوهم بكل إكرام ليتركوا لهم سبيلًا للدخول إليها أو فتحها لهم.

وكان ظاهر قد أرسل إليها نجدة من أولاده وفرسانه وجعل قائدًا لها ابنه عليًّا فاجتمعوا في جهة قيسارية ولبثوا هناك يتشاورون فيما إذا كان في طاقتهم قتال أبي الذهب وقد تداخلهم الخوف من بطشه وقوة عساكره ولم يكونوا يتجرءون على التقدم إلى يافا لنجدة من كان فيها.

وكان عثمان الظاهر يجول بين إخوته ومتقدمي رجالهم ويخوفهم ويحذرهم من

قتال أبي الذهب ومعه هذه القوة العظيمة والأوامر السلطانية ويخوفهم من الدولة ويقول لهم إن سيفها طويل ولا أحد يقدر عليها ولا بد أن تقهر وتغتال كل أعدائها وكان من عصبته وعلى رأيه أبناء دياب البشناق أحمد وصالح وياسين من الزيادنة فكانوا يجولون معه ويمنعون أصحابهم من الذهاب إلى يافا وقتال أبي الذهب.

ولما وقف علي بن ظاهر على ما كان يفعل أخوه عثمان أرسل إلى محمد بك ولده الحسن بهدايا ومكاتيب يستميله إليه.

وفي أثناء ذلك أخذ المغاربة الذين مع الغز يكلمون المغاربة الذين كانوا يحافظون على أبواب يافا من قبل كريم الأيوب ووعدوهم بكل إكرام من قبل أبي الذهب وضمنوا لهم ذلك أن فتحوا لهم الباب أو تركوهم يدخلون وبعد أن استوفوا منهم ما اشترطوا عليهم فتحوها لهم فدخل عسكر مصر إلى يافا بالسيف وقوة الفتح وأمر محمد بك رجاله بنهب المدينة وأن يعملوا السيف بكل من كان فيها بدون فرق ولا تمييز من المسلم إلى النصراني إلى اليهودي إلى الغرباء وأبناء السبيل والزوار ثم أمر بجعل رءوس القتلى ركامًا وأهرامًا ليوقع الرعب في قلوب جميع حكام البلاد وأهلها حتى لا يقاومه أحد.

بعد الفتح

وبعد فتح يافا ودخولهم بالسيف إليها كما تقدمنا وجدوا كريم الأيوب حاكمها مجروحًا جرحًا بليغًا لا يرجون له الحياة ولا يخافون منه بأسًا ثم وجدوا كاتبه يوسف بن إبراهيم الصباغ فقبضوا عليه وأراد أبو الذهب أن يقتله لكن أسرع إبراهيم الجوهري كاتب محمد بك وقصد أن يخلصه وصارت ترد إليه مكاتيب إبراهيم بهذا الشأن فقال إبراهيم الجوهري لمحمد بك وماذا ينفعنا قتل رجل مثل هذا فإذا أبقيته

حيًا ربما يفديه أبوه في عكا بكل ماله وهو ذو مال كثير كما قال عنه فالرأي الصواب عندي أن تؤخر قتله إلى أن نصل إلى عكا فاستصوب أبو الذهب كلامه وأمر أن يُحبس فأخذه مراد بك خزنداره الذي كان حاضرًا لجيه وكان أقرب المقربين إليه وجعله عنده محبوسًا فأوصاه إبراهيم الجوهري وترجاه بأن لا يضيق عليه وبأن يكرمه.

وإذ وقع القتل في النصارى تقدم إبراهيم المذكور إلى مولاه وقال له وما ذنب هؤلاء النصارى المساكين الذين لم يرفعوا علينا سلاحًا وليسوا أهل حرب ولا قتال بل هم أهل ذمة في عهد الإسلام.

فقال له أبو الذهب أنا أقسمت أن أقتل كل أهل يافا وأن أجعل من دمهم نهرًا يجري في شوارعها.

فقال له إبراهيم الأفضل يا مولاي بعد قتل من قتل منهم أن تبيع دمهم وتبيح ذلك لمن يشتري كأنك ذبحتهم.

فقال له ومن يشتريهم وقد نهب العسكر كل بيوت يافا.

فأجاب إبراهيم أنا أشتريهم من مولاي حسنة لوجه الله ودفع بلاء عنه واتفق معه على مبلغ من المال عن كل رجل وأن تكون فدية المرأة بنصف فدية الرجل وأن تكون فدية الطفل بنصف فدية المرأة.

وحالًا نادى المنادي بمنع قتل النصارى وأن كل من وقع في يده نصراني يسلمه إلى المعلم إبراهيم الجوهري وكان قد قُتل منهم كثيرون ونهبت بيوتهم كلها وقد خرجوا منها عراة ولولا إبراهيم لكانوا قتلوا كلهم.

على عكا

وبعد ذلك أمر أبو الذهب بالرحيل إلى عكا وإذ بلغ ظاهر ما جرى في يافا ورأى تراخي أولاده وكبار رجاله خاف على نفسه وترك عكا وجعل فيها الدنكزلي مع مغاربته وأمرهم بالمحافظة على أهاليها وسار بأهل بيته وبعض رجاله وفيهم وزيره إبراهيم إلى قلعة هونين عند الشيخ قبلان ليجتمع هناك بمشايخ المتاولة ويتدبر معهم فيما ذا يجب عمله ليدفعوا عن نفوسهم وعن البلاد شر أبي الذهب المال والمهادنة أو بالحرب والقتال وكذلك خرج أكثر أهل عكا إلى الجبال وأكثر النصارى هربوا إلى دير المخلص في لبنان.

فجاء محمد أبو الذهب ونزل في العمارة الجديدة التي قد بناها ظاهر مقابل عكا بعد أن استولى على حيفا والبرج الذي هناك ولما خلت عكا بفرار ظاهر دخل إليها ابنه علي وأخذ يسكّن روع من بقي فيها ويطمنهم على نفوسهم وأوصى الدنكزلي بالمحافظة والسهر عليهم من العدو ومن ثقلة المغاربة عليهم ثم عاد إلى حيث كان[(١)].

خراب دير الكرمل وموت أبي الذهب

واتفق أن بعض المترفضين من أهل تلك البلاد تقربوا من محمد بك وقالوا له إن النصارى في هذه البلاد تجاوزوا حدود أهل الذمة وصاروا يعملون كل سنة حجًا في

---

(١) روى غير واحد من المؤرخين الثقاة أن الداعي لدخول علي الظاهر إلى عكا بعد خروج والده منها كان مسندًا إلى وعد أبي الذهب له بأنه سيجعله مكان والده وكان سبب خروجه منها بسرعة في اليوم ذاته أمره له بالخروج منها أو تهديده له أمام أصحابه فخاف علي الظاهر أن يغدر به كما غدر بمولاه

جبل الكرمل كالإسلام ولهم مزار هناك على اسم سيدنا النبي إلياس وقد بنوا لهم كنيسة يأتون إليها بالنذور والهدايا من كل صوب.

فاستخبر أبو الذهب من الحاضرين عن هذه الكنيسة فقالوا له إنها كنيسة قديمة ولها قبة عظيمة من بنيان الكفار فأمر أن تهدم وقال غير جائز أن يكون للمشركين قبة ومزار في بلاد الإسلام وأرسل بالحال من يهدمها.

وكان في لحف جبل الكرمل مزار للمسلمين يقولون له مزار الخضر فلما سمع خادم المزار وكان شيخًا جليلًا عالمًا بهذا الأمر جاء إلى محمد بك واستأذن بمقابلته ودخل عليه وقال له: جئت أيها الأمير أرجوك ألا تهدم هذه القبة فإن في زيارتها من النصارى فائدة لنا ومنفعة لفقراء مزار الخضر واحذرك من هذا لأنه مكروه عندنا محو آثار السلف الأولين والمجترئ على ذلك هيهات أن يسلم من العطب.

وبينما كان يخاطبه بهذا دخل بعض الحاشية وقال له قد تم الأمر بهدم القبة فسكت الشيخ وأخذ يعض على شعر لحيته وقد تغيرت سحنة وجهه فقال له أبو الذهب: استوفِ كلامك.

فأجاب الشيخ: ماذا أقول وقد قضي الأمر الذي به تستفتيان وكيفما كان هذا الأمر أقول وقاك الله أيها الأمير من غضب الأولياء والأنبياء والصالحين. ثم استأذن وقام ليخرج فأمر له أبو الذهب بالإحسان فأبى قبوله.

وفي تلك الليلة حمّ أبو الذهب وفي ليلة السبت اشتدت عليه الحمى ويوم السبت وقع في البحران وفي المساء استفاق وجعل يقول: أخرجوا عني هذا الشيخ الذي أحرقني بناره ثم اشتد عليه الحال حتى فارق الحياة عند نصف ليل الأحد في ٣٠ أيار سنة ١٧٧٥ الموافقة سنة ١١٨٩ هجرية كما أرخها شاعر المتاولة حينما هنأ

ظاهرًا بعودته سالمًا إلى عكا إذ قال:

مـن كـان أمـره للإلـه كـلاه مـن كـل عطـب
فرجعـت منـصورًا بـه مـن غـير رمـح ولا عـضب
بـالفرد ربـك أنثـي أرّخـت مـات أبـو الـذهب

فإذا حسبت قيمة حروف قوله مات أبو الذهب يكون مجموعها ١١٨٨ وإذا أضفت إليها واحدًا المشار إليه بقوله بالفرد تصير ١١٨٩.

وأراد الغز أن يكتموا أمر موت أبي الذهب لكنهم لم يستطيعوا وفي صباح تلك الليلة التي مات فيها شاع أمر موته في العسكر وانهدم صيوانه وصار أولاد الخزنة في حركة شديدة وقد جردوا على بعضهم السلاح ولولا مراد بك يقوم ويصلح بينهم لكانوا أفنوا بعضهم فسبحان من يغير الأحوال ويقلبها وهو الدائم الأزلي في كل حال.

نجاة يوسف من السجن

وكان لما حضر محمد بك من يافا إلى عكا أحضر معه يوسف بن إبراهيم الصباغ مقيدًا مسجونًا عند خزنداره مراد بك فهذا تعرف بيوسف وأحبه وتلطف به في سجنه فحين مرض محمد بك واشتد به المرض أتى مراد إلى يوسف وأخبره مبشرًا بذلك فخاف يوسف أن يكون ذلك خدعة منه ليرى ماذا يقول فقال له كلأه الله من كل سوء. ثم صار كلما اشتد عليه المرض يأتي إلى يوسف ويبشره إلى يوم السبت الذي قبل العنصرة في ٣٠ أيار سنة ١٧٧٥ وقد شاع خبر سوء حال محمد بك في العسكر فأتى مغاربة يافا الخائنون ووقفوا للخزندار وطلبوا منه أن يسلمهم يوسف؛ لأنهم خافوا إذا جرى لمحمد بك قضاء الله ورجع ظاهر إلى عكا يخبره يوسف عن

خيانتهم فلما رأى الخزندار ذلك منهم أرسل أحضر جميع مماليكه مسلحين وتلطف بالحيلة مع المغاربة ومنعه منهم إلى نصف ليلة الأحد فدخل عليه وقال له يا معلم يوسف إن السنجق قد قضى الله فيه قضاءه والمغاربة أتباعكم الذين خانوكم في يافا وسلمونا إياها بلغك بالأمس ما جرى بيني وبينهم حتى منعتك منهم وكان السنجق حيًّا. وأما الآن فقد توفي ولا بد أن يشيع خبر موته بعد قليل ويأتوني بقوة لا أقدر أن أدفعها لأننا بخوف من أهل البلاد ومن العربان ثم إن الشقاق واقع بيننا على الرياسة وكل منها يقول أنا كنت الغالي على محمد بك والمقرب إليه أكثر. وأنا الأفضل من الجميع أن أكون مكانه والغاية أخاف عليك من المغاربة وأرى الصواب وما أحد سمع بموت السنجق أن تقوم وتهرب في هذه الساعة؛ لأنك من أهل البلاد وتعرف أين تضع رجلك لئلا يأتي المغاربة فاضطر لصيانة لك ولعرضي أن أعرّض نفسي للقتل. فشكر له يوسف نصيحته وطلب منه أن يرسل معه خادمًا يخرج به من عكا خوفًا أن يقبض عليه الحراس وقال يوسف لبعض رجال المعلم إبراهيم الجوهري أن يرسل ساعيًا إلى صيدا يخبر والده إبراهيم بهربه.

وقد سمعت عمي يوسف المذكور وأنا حدث صغير يخبر بهذا عن نفسه قال: لما خرجت من باب عكا أخذت اركض إلى أن وصلت إلى أبي عتبة فأخذت طريق صور وأنا خائف أن أجد في طريقي إنسانًا مريبًا أو حيوانًا رهيبًا وكنت في قميص حرير وصدرية وتخفيفة بيضاء وجعلت تارة أجري ركضًا وحين اتعب أمشي رويدًا وأنا أنظر إلى ا السماء لأرى طلائع الفجر والتفت ورائي خوفًا من أن يكون أحد يلاحقني وما زلت أسير هكذا إلى أن لاح لي الفجر فسمعت جرسًا يدق فالتفت إليه فوجدت راعيًا خارجًا بغنمه فحييته وقد خفت من ملبوسي أن يكشف أمري ويوقعني بها أنا هارب منه فأتيت الراعي وقلت له من أين الخال.

قال من البصة. قلت أتريد الخير؟ قال قل وأنت أهله قلت له أريد أن أعطيك حوائجي هذه وتعطيني العباة البوز التي عليك وكانت عليه عباءة مرقعة وقبتها من فرط الوسخ كأنها مزفتة. فضحك وظن أني أهزأ به فقال: يا خال، الفقر والغنى من الله لا حيلة للإنسان به فإن كنت تباهيني بلباسك فإن لذتك به لا توازي تعبك لاكتسابه وعباتي هذه التي تهزأ بي لأجلها لذتي بها أكثر من تعبي لاكتسابها وغاية الإنسان من الثياب ستر العورة.

فقلت له: ما هذا قصدي وقد قلت لك الجد والصدق وخلعت له حالًا الصدرية والقميص فلما رأى مني الجد خلع عباته و القاها علي ودفعت له حوائجي فقال أظنك هاربًا خائفًا وإذ لم يسمع مني جوابا قال خذ مني إن كان ذلك فاترك طريقك هذه وسر في نصف الزرع بهذه الطريق فانه أسهل وأقرب.

فقلت له هل أنا بعيد عن البياضات فقال إن كنت تسير مقدار ساعتين تصل إليها فاذهب مصحوبًا بالسلامة. قلت أخاف من سائل يستخبرك. قال كن مطمئن البال.

فمضيت في الطريق التي دلني عليها ورأيت بها راحة لأنها لينة الموطئ لكونها مكسية بالعشب بخلاف الأولى التي عقرت رجلي بالحجارة التي فيها.

وما زلت هكذا إلى أن بزغت الشمس فنظرت من بعيد نحو خمسين رجلًا مشاة ركضًا فظننت أنهم مغاربة يحلقون بي فخفت جدا وجعلت اركض وانظر ذات اليمين والشمال لأجد مكانًا اختفي فيه عنهم وما مضى قليل حتى أخذوا غير طريق ومضوا. فسرت على وجهي إلى أن أدركت البياضات وقطعتها ووصلت إلى رأس العين قرب صور وأنا من التعب والخوف في أمر عظيم فرأيت امرأة عجوزًا تغسل

هناك وقد عملت لها خصًا صغيرًا تأوي إليه فتقدمت منها وقلت لها يا خالتي هل ترغبي الثواب.

قالت ماذا تريد يا شيخ قلت مكانًا من خصك ارتاح فيه قليلًا قالت بالرحب وقامت فأدخلتني إليه ثم قالت أراك كالخائف. قلت نعم. قالت وأظنك جوعان. قلت ما أخطأ ظنك يا خالة. فأحضرت لي قرصتين من الذرة فأكلتهما وشربت وأضجعت فلما ارتحت قليلًا قمت ونظرت قبة العباة فوجدت عليها من القمل ألوفًا تأكل لحمي وأنا مما بي لا أحس ثم رأيت في الخص ورقة فيها ملح فتبصرتها فوجدتها تصلح للكتابة عليها فخطر في بالي حينئذ أن أكتب إلى أعيان صور ليداركوني لكن أين الدواة ومن يبلغهم رسالتي. فدعوت المرأة وقلت لها أعندك فحم. قالت: نعم. وطلبت منها سكينًا وبريت قلمًا وجعلت الفحم على حجر أملس وسحقته سحقًا ناعمًا وجعلت عليه ماءً وكتبت إلى إبراهيم مشاقة كلمتين أنوّه له بما أنا فيه. فلما فرغت من أمري قلت للمرأة هل تعرفين أحدًا هنا يوصل هذه الورقة لإنسان في المدينة بأجرته.

قالت: لي أخ يقبل بعد الساعة. فما مضى قليل حتى أقبل أخوها فأخبرته بأمري فاتاني وقال لي أين مكتوبك ولمن تريد أن أوصله. قلت أتعرف إبراهيم مشاقة[1]. قال نعم ومن لا يعرفه في بلدنا. قلت أريد أن توصل له هذا المكتوب وترى ماذا

---

(١) هو ابن جريش مشاقة وجد الدكتور مخائيل مشاقة وكان حينئذ كاتبًا ومتسلمًا أعمال الشيخ ناصيف النصار المتولي في صور كما كان أبوه قبله في مقامه ولما فتك الجزار بعد ذلك بمشايخ المتاولة أقام إبراهيم المذكور حاكمًا على بلادهم وجعل إقامته في قلعة يارون إلى أن توفي بمدينة صور في ١٣ نيسان سنة ١٧٨٧ وإبراهيم عزام كان من أعيان طائفة الروم الكاثوليك وكبار رجال الحكومة في صور أمر الجزار بشنقه مع الأمير يوسف شهاب والشيخ غندور السعد إذ بلغه عنهم وهم في سجن عكا أنهم تمنوا ألّا [illegible] سنة ١٧٩١

يقول لك. قال سمعًا وطاعة أفي هذه الساعة. قلت نعم. فأخذ المكتوب وما مضى قليل إلا رجع وجاء فقبل يدي وقال مَن مِن الأمراء أنت يا سيدي. قلت لماذا هذا السؤال. قال حينما أعطيت الورقة لإبراهيم مشاقة أرسل حالا أعلم إبراهيم عزام وتشاوروا مع بعضهم ورأيتهم باهتمام وقالوا لي أسرع أخبر مرسلك أنّا وراءك. وما أستوفى الرجل كلامه إلا وإبراهيم مشاقة وإبراهيم عزام وجميع أعيان صور النصارى وصلوا إلى المكان ونزلوا وسلموا علي ونزعوا عني لباسي السابق ذكره وألبسوني ثيابًا أتوا بها معهم فسررت بذلك جدًّا حتى بكيت من الفرح وركبت معهم إلى صور وهناك أحضرت الرجل المرسال ودفعت له أجرته وأرسلت معه للمرأة كسوة وعند الصباح ركبت من صور وركبوا معي وأوصلوني إلى هونين ودخلت فسلمت على والدي وأدخلني على الشيخ ظاهر فسلمت عليه ودعوت له وأخبرته بجميع ما جرى لي مفصلا من أول الأمر إلى آخره فهنأني بالسلامة وفرج بي وخلع علي لكنه حزن على ابن عمه كريم الأيوب الذي كان حاكمًا في يافا.

حسن باشا بالأسطول العثماني على عكا

قبل موت محمد بك أبو الذهب على باب عكا مات عثمان باشا وكلاهما عدو لظاهر فظن حينئذ أنه ليس عليه خوف إلا من الدولة فجعل همه أن يفي بالمال المكسور عليه لها وأن يحصن عكا بقدر طاقته فتشاور إبراهيم بهذا وقال له يا إبراهيم خزنتي فارغة والبلاد حُطمت في هذه السنين بالحروب، والظلم لا يفلح صاحبه. فقال له إبراهيم إني أقدر أن أقترض وأدبر من مالي مال الدولة عن سنتين بحيث إن سعادتك تخصم لي مقابل ذلك ثلث مدخول البلاد. فرضي بذلك ظاهر واتفقا عليه.

وكان عند ظاهر أفندي من كتبة الديوان الهمايوني منفيًا ومغضوبًا عليه من الدولة

منذ ثلاث سنين فأحبه ظاهر وأراد أن يترجى الدولة لتعفي عنه وترضى عليه لكن لم تكن الأحوال تساعده لإتمام ذلك. فلما جهز إبراهيم مال الدولة عن سنتين أرسل يخبرهم بذلك ويترجاهم بالأفندي المذكور إن كانت تكرم برضاها عليه ليرسل المال صحبته فأجابت الدولة لما طلب وأرسلت له فرمان الرضا فأرسلوا المال معه وما بقي من جميع المال المكسور إلا مال سنة واحدة مع مال تلك السنة[1].

---

(١) نظن أنه سقط هنا من هذا التاريخ بعض أوراق مفقودة قد تضمنت شيئًا عن أمر العفو الذي صدر للشيخ ظاهر من السلطان عبد الحميد الأول بواسطة عثمان باشا المصري سرعسكر عرب أستان سنة ١٧٧٣ وقد ذكر هذا الأمير حيدر في تاريخه مع نص مكاتبة عثمان باشا للأمير يوسف بهذا الشأن صفحة ٨١٥ ونص الأمر السلطاني صفحة ٨٢١. قال عبود الصباغ بعد كلامه عن فرار أحمد الجزار من القدس إلى الشام بالبغال والذخيرة: أما عثمان باشا فانه أرسل البغال والأرضي إلى ظاهر وكتب له مكتوبا يقول له فيه لماذا أنت عامل كل هذا وسيف السلطان طويل والذي هو نظيرك لا يريد أن يكون تحت غضب مولانا السلطان وأنا أعرف أن الذي ألجأك إلى الخروج عن الطاعة عثمان باشا مملوك بيت العظم أعداءك سابقا والمذكور انعزل عن الشام كما لا يخفى وأنا مقيم الآن في الشام وكيل عام لمولانا السلطان في كل بلاد عرب أستان والذي تريده أعمله لك بحيث إن الأموال الميرية المكسورة من حين خروجك عن طاعة الدولة تدفعها بدون نقصان.

فكان جواب ظاهر إلى عثمان باشا الوكيل: نعم إن الذي ألجاني إلى الخروج عن طاعة مولانا السلطان هو عثمان باشا مملوك بيت العظم كما ذكرتم وأما أنا فأني أريد أن أكون في كل دقيقة في طاعة الدولة وأما الأموال الأميرية فأني أدفعها على الرأس ثم العين إلى آخر نصف فضة والآن كل طلبي وغاية قصدي نيل العفو والرضا من مولانا السلطان لا غير.

وإذ وصلت كتابة ظاهر إلى عثمان باشا فرح بذلك فرحا عظيما لأنه ما كان يظن أنه يرضى حالا بتقديم الخضوع والطاعة وعلى الخصوص بدفع مال الميري المكسور لسبب المصاريف التي نفدت منه في أيام الحرب ومن ثم حالا كتب عثمان باشا إلى السلطان مصطفى وأخبره بالذي جرى له مع ظاهر وأرسل له جواب ظاهر الذي حضر له منه. وقبل وصول الططر (حامل البريد السلطاني) إلى إسلامبول مات السلطان مصطفى وقام عوضه السلطان عبد الحميد وانعزل عثمان باشا الوكيل من [illegible]

وفي ٧ اذار سنة ١٧٧٥ أتت الأخبار من عيونه في إسلامبول أن الدولة قتلت الأفندي صديقه فأدرك حينئذ أنه مأخوذ لا محالة ومن ثم جعل دأبه تحصين عكا والاستعداد لكل ما يأتي به المستقبل.

وفي نيسان أتته الأخبار من عيونه أن الدولة أبرزت أوامرها لقبطان البحر حسن باشا أن يتوجه بالمراكب وينزل على عكا وأرسلت جملة فرمانات لباشاوات البلاد أن يتوجهوا برًّا ضده على عكا[1].

وفي أول آب من السنة المذكورة أطل على عكا مركبان ثم أخذت المراكب تكثر وربطت في جون حيفا فأرسل ظاهر حالًا أحضر أولاده ووزيره إبراهيم ومواليه ومشايخ المتاولة قبلان وناصيف وخلافهم وتشاور معهم بهذا الأمر وآخر ما اتفقوا عليه بهذا الشأن أن يعمل جهده بالاسترضاء للدولة ولحسن باشا فإذا رأى أن هذا غير ممكن فعند ذلك يستسلمون لقضاء الله ويدافعون عن نفوسهم يدا واحدة فأما أن ينتصروا والنصر بيد الله يؤتيه لمن يشاء أو أن يموتوا جميعًا. وتفرقوا على هذا.

شر الخيانة وقتل ظاهر والدنكزلي

ثم أحضر ظاهر الدنكزلي أغا المغاربة وأوصاه أن يعبي مدافعه ويأمر الطبجية أن

وبينما كان ظاهر يستعد للحرب حضر لعنده قبجي (رسول السلطان) من الدولة اسمه هاشم احمد أغا وبيده خط شريف من السلطان بالعفو والأمان وإذ صار القبجي بقرب عكا خرج ظاهر لملتقاه ودخل به إلى عكا واضعًا منديل السلطان في عنقه.

(١) قال نوفل في تاريخه نقلا عن بعض مؤرخي الأتراك سنة ١٧٧٥ أحالت الدولة تأديب الشيخ ظاهر العمر إلى حسن باشا الجزايرلي قبودان باشا مع محمد باشا العظم والي الشام ومحمد باشا والي ادنة ابن إبراهيم باشا الذي توجهت عليه ايالة صيدا بطريق الالحاق واحمد باشا الجزار محافظ السواحل

يلازموا الأبراج وفي اليوم الثالث صار أمام عكا أكثر من خمسة عشر قطعة كبار فنزل ظاهر وأخذ يطوف على الأبراج وبينما هو في برج الذبان ظهرية ذلك النهار انطلق من المراكب نحو خمسين مدفعًا على الأبراج فأمر حينئذ ظاهر بضرب المدافع على المراكب. وكان عثمان ابنه منع الدنكزلي أن يطلق المدافع على مراكب السلطان وإن فعل يحل به وبمغاربته سيف الانتقام فلما أمر ظاهر بضرب المدافع فما قدروا من هيبته أن يخالفوه فصاروا يضربون المدافع في الهواء وعلى البحر لا على المراكب.

على أن إبراهيم كتب لحسن باشا كتابًا يتذلل له ويتلطف به وأنه يقوم له بجميع ما يمكنه لوفاء مال الدولة وما يجب له فحضر له جواب شفاهي يتضمن الغضب وعدم الرضا ويلوم ظاهرًا على مقابلة مراكب السلطان بضرب المدافع عليها فأعاد إبراهيم الخطاب بكتاب آخر يعتذر له به ويستسمح منه ويتذلل لديه وأنهم يلقون إليه زمامهم عند الدولة ويكون هو المطلق فيما يرسمه عليهم بحيث لا يقوم من عكا إلا وهو راضٍ منهم لنفسه من وفاء الواجب له واستيفاء مال الدولة. وأرسلوا الكتاب مع الشيخ عبد الحليم الشويكي وقاضي عكا محمد أفندي فحضر لهم الجواب بالإيجاب غير أنه قال لهم فيه إن أمر السلطان يحتم عليّ أن أطأ عكا وأدخلها فإن خفتم شر العسكر السلطاني الذي معه فليخرج ظاهر وخاصته من عكا إلى حيث يريد وأدخل أنا بالعسكر إلى عكا وأقيم فيها إلى أن أقبض مال السنتين وأكون بهذا قد أتممت الأوامر السلطانية فارجع بطريقي وأكون محاميا عن ظاهر ومن يلوذ به عند الدولة واسترضيها عليه.

فحينما وصل هذا الجواب الذي حفظ عندنا وهو بالتركي بعلامة حسن باشا وختمه وقد قلبته بيدي مرارًا فاستشار ظاهر ذويه وإذ وجدوا في كلامه شيئًا من الصواب على ما تبادر لهم من ظاهره اتفقوا على أن يرحل ظاهر من عكا غداة غد مع

عياله إلى قلعة هونين عند قبلان شيخ المتاولة كما فعل ذلك قبلًا حينما حضر محمد بك مع غزو مصر.

وكانت مكاتيب عثمان وهو في شفاعمر متصلة لحسن باشا وإخوته بأن لا يسمع أحد لقول أبيه وكذلك إلى الدنكزلي بأن لا يضرب على مراكب السلطان وأن يفتح بوابات عكا صباح اليوم التالي للعسكر السلطاني وبلغ ظاهر أن الدنكزلي فتح البوابات وقال لأهل عكا نحن لا نحارب السلطان فمن شاء أن يخرج فليخرج فأسرع الناس بالخروج خوفًا على دمهم تاركين أموالهم وأرزاقهم وكذلك تجهز ظاهر وخرج بعياله صباحا قاصدًا هونين فاتفق أن أحد خدمه عرف بذلك فحضر وأخبر عثمان فخاف هذا أن تكون هذه المرة نظير السابقة ويرجع أبوه إلى عكا سالمًا. فأرسل إلى الدنكزلي يقول له هو ذا أبي خارج بعياله هاربًا من عكا فإن شئت أن تكون أول محبوب عند حسن باشا فاقض أمر الله به؛ لأنه خارج وحده بعياله فأتى الدنكزلي مع بعض المغاربة وحطوا في مكان قريب في محل يقال له أبو عتبة فلما صار ظاهر بحرمه بعيدًا عن عكا نحو ربع ساعة نظر في حرمهِ فما وجد حظيته[1] فسأل عنها فقالوا له ما رأيناها خرجت معنا فقال إنه من العار في وقت مثل هذا أن يترك الإنسان عرضه ثم عاد بجواده فوجدها قادمة.

وإذ بلغ إليها أراد أن يردفها وراءه على فرسه وأخذ بيدها لذلك وكان لشيخوخته قد ضعف فوقع من فرسه عليها إلى الأرض وكان الدنكزلي ينظره من بعيد مع أحد المغاربة الذين معه فأسرع إليه وأطلق عليه طبنجة أصابته فأخذ ظاهر يختبط في دمه ويقول اللهم أحمدك عليها شهادة لعرضي. واستل حينئذ الدنكزلي سيفه وقطع رأسه ومضى به إلى حسن باشا وكان المذكور قد نزل بعسكره من

(١) وهي أصغر [illegible] وكانت على علاقة مع أحد المغاربة.

المراكب ودخل عكا يوم الخميس في ١٦ آب سنة ١٧٧٥.

صورة ظاهر وأخلاقه

كان ظاهر أبيض اللون ممتلي الوجه واسع العينين ذا فم صغير رقيق الشفاه إلا أن الشفة السفلى أغلظ قليلًا من العليا وحواجبه طويلة مقرونة ذا أنف مدور معتدل الشكل طويل الذراعين والأصابع نحيف الجسم مربوع القامة متوسط الطول خفيف الذقن والشوارب وأسود الشعر بالأصل ذا لحية مدورة وأكثر شبها بصورته ولده علي ثم العباس.

وكان حليما جدًّا لكن كان شديد الانتقام كما قال فيه عبد الحليم الشويكي في قصيدته العينية:

إن حلمت لست تبقي لحليم أو بطشت لست تبقي للسباع

أخبرني مخائيل البحري تلميذ عبد الحليم الشويكي قال: كان ظاهر سمع بابنة شيخ من مشايخ الصقر وصفوها له بالجمال فأرسل خطبها من أبيها وبنا بها. وكان لها ابن عم يحبها ويرجي نفسه بزواجها فلما خطبها ظاهر استهاب الأمر وسكت على هواه إلى ليلة زفافها في الناصرة ودخل ظاهر عليها وأقام معها هناك مدة شهرين وكان ينظر من شبابيك قصره في أكثر الأيام شابًا من عرب الصقر عليه لوائح المرض ينظر إلى شبابيك القصر فترك الأمر ولم يبال به إلى ذات ليلة إذ دخل إلى بيته عند الغروب على غير ميعاد منه وقبل أن يدخل إلى المقصورة التي كانت فيها سمع صوت رجل فوقف قليلًا وأخذ ينظر من خلال الباب فوجد معها الشاب الذي كان يراه يوميًا تحت شبابيك القصر فرجع وجلس في مقصورة مقابل المقصورة المذكورة واتفق حينئذ أن الجارية أرادت أن تدخل إلى مقصورة سيدتها بأمر فمنعها من

الدخول وقال لها دعي الأمر الآن إلى أن تدعوك وأقام في محله إلى أن خرجت امرأته لأمر فدعاها وقال لها اضطررت للحاجة الفلانية فظننتك نائمة وما كان لي أمر مهم يوجب أن أيقظك لأجله والآن أنا خارج في طريقي وربما أرجع بعد قليل. ثم خرج وجعل ينتظر خروج الشاب من قصره فلما خرج أتى إليه وقبض على يده وقال له: أتعرفني. قال له نعم أنت الشيخ ظاهر. قال له من أين خرجت؟ قال له من بيتك. قال له أصدقني صدق أخٍ واعترف لي اعتراف مريض لطبيب واسترشدني كأبٍ وعليَّ القيام بواجبات كلٍ منهم نحوك.

فقال له الرجل: سلني لأقول لك الحق ولا سواه. قال له ظاهر ممن أنت؟ قال له من عرب الصقر ابن الشيخ فلان. فقال له ظاهر إذًا عروسي ابنة عمك؟ قال نعم. فقل له ظاهر رأيتك مرارًا تحت شبابيك القصر وفي هذه الليلة وجدتك معها في غرفتها. فقال له والله يا شيخ وأنت أكرم من سمح وأما الحب لها فشديد من زمان مديد منعني عن زواجي بها اختيارك لها فمنعوني قومها أولاد عمي والحب ما أبقى لي عقلا ولا جسمًا فجعلت آتي إلى تحت شبابيك قصرك أبرد فؤادي بذلك وأما وجودي في غرفتها فوالله ما تعديت النظر إليها.

قال له ظاهر أأنت أهل للجميل؟ قال أظن أنك تزرعه في أرض المرج. فقال له ظاهر اذهب بالسلامة والسلام ولا تظهر لأحدٍ شيئًا من هذا ثم دخل ظاهر إليها وخلا بها وكان شديد الغرام بها لجدتها وجمالها فجلست بجانبه وأرادت أن تداعبه.

فقال لها مكانك –فقالت له ما الخبر– قال له خيرًا. قبلًا كنت بعلك والآن أنا أخوك أصدقيني هل تحبين أحدًا من قومك –قالت له: نعم أحب ابن عمي ولم تتجاوز محبتنا إلى غير النظر والكلام. فقال له أترغبينه بعلًا لك؟ فسكتت وتغير لونها ووقعت على رجليه تقبلهما وهي تقول والله لم نتجاوز ما ذكرت.

فقال لها ظاهر: لا بأس عليك قومي ادعي إليك والدك ومتى حضر اشكي إليه من شراسة أخلاقي وأنا أشكيك له فأطلقك وأدعو ابن عمك وأزوجه بك. فكان ذلك وعند الصباح طلقها بمحضر أبيها مع أنه كان يستعيب الطلاق ثم دعا ابن عمها فجعله من بعض ملازميه ورتب له معاشًا وأقطعه أرضًا وزوجه بها بعد أن استوفت عدتها.

ولظاهر من أمثال هذه الحكاية في الحلم شيء كثير يمنعني عن سردها قصد الاختصار ناهيك حلمه نحو ولده عثمان.

استطراد

وأما كرمه فكان متناهيًا ويكفي أن نقول: إنه كان قد ملك جميع البلاد التي استولى عليها بسيفه وحسن سياسته ومع ذلك لم يختص لذاته منها إلا الثغور الساحلية وكانت خيراتها موزعة بين أولاده حتى ما كان يوجد عنده مائة كيس.

وأخبروا عنه أنه كان يركب في شوارع عكا فإذا وجد فقيرًا يسأله حسنة كان يأمر وزيره يوسف القسيس أو إبراهيم الصباغ بإعطائه ثلاثة أو أربعة أكياس واتفق يومًا أن قابلته سائلة فأمر لها بكيس واحد وكان معه وزيره إبراهيم صباغ حينئذٍ فأسرع وجهز له الكيس بألف قطعة ما بين عشرات وعشرينات وثلاثينات وأتاه به ولم تزل السائلة هناك فوضعه أمامه. فقال له ظاهر: ما هذا يا إبراهيم. فقال له هذا الكيس الذي أمرتني أن أدفعه للسائلة. فقال له كل هذا كيس واحد –فقال له نعم– فقال له ظاهر كيفيها منه ربعة أو ادفع لها نصفه الآن والثاني تدفعه له مرة ثانية وما عدت آمر بهذا القدر لأني أعرف العدد ولا أعرف المبلغ.

وبعد هذا ربت إبراهيم مبلغًا من المال ليوزعه إحسانا شهريًا على جميع الفقراء ومنعهم من السؤال في الشوارع ورتب لكل فقير من فقراء الإسلام في عكا شهرية.

وإذا خرج ظاهر مرارًا لصلاة الجمعة ولم يجد أحدًا من الفقراء يسأله حسنة سال إبراهيم عن ذلك فقال له يا موالي الشيخ رتبنا لهم راتبًا شهريًا لمنعهم من السؤال في الشوارع –فقال له ظاهر لا تفعل هذا يا إبراهيم واسمح لهم أن يسألوا والله إني أتبرك في اليوم الذي أخرج فيه من قصوري وأرى سائلًا يسألني الإحسان.

وكان كثير البر والعناية بأهله وذويه وحاشيته يلاحظ أمورهم كلها وشديد المؤاخذة لهم على كل هفوة ولا يحب أحدًا أن يتزخرف في لباسه ولا أن يكون متخبترًا في مشيه وكان صموتًا لا يتكلم إلا لحاجة وما رآه أحد مازحًا أو ضاحكًا أو ماجنًا وما سمع منه كلمة فاحشة وما كان يستفزه لا الفرح ولا الحزن ولا الخوف وكان يقول: إني ألوم نفسي لخفتها إذ استفزتني الحزن على الجهجاه[1] عندما قتله الصقر وانتقمت منهم نقمة استغفر الله منها. واستفزني الخوف حينما انتظرنت الغز ولم يحضروا وكذلك استفزني الفرح حينما وصلوا فارسلت إلى عثمان باشا أخبره بقدومهم فرحا بذلك ومهددًا له... استغفر الله منها كلها.

وكان شديد الهيبة شريف النفس كثير الحياء ولم يكن يرفع نظره إلى امرأة أو ينظر إليها مليًا وكان يكره كل من كان يحب الفساد أو سمع عنه فعل القبيح وكفى ما ذكرناه عن المرأة التي كانت تفتح له شباك بيتها ليراها ويعلقها فأمر على رجلها بالرحيل من عكا.

---

(١) تدخل أل على الأعلام باستعمال أهل فلسطين للتعظيم لا للتعريف كالجهجاه والكنج وظاهر العمر

وكذلك كان يكره الخمر وشاربه ويقول أعجب لعاقل كيف يسمح له عقله أن يشرب جنونًا. وكان سبب بغض ابنه عثمان له؛ لأنه كان دائمًا يوبخه على السكر وعمل القبيح وكان عثمان شديد الولع بهاتين الخلتين القبيحتين.

وكان ظاهر ذا فطنة وفراسة غريبة بحيث كان لا يرى أحدًا إلا عرف ما تحدثه به نفسه وقد اتفق أنه لما كسر عثمان باشا والدروز على صيدا ورجع إلى عكا ظافرًا منصورًا والمدافع تطلق شنك[1] لذلك وكان اليوم كله ما نزل عن جواده ولما دخل إلى قصره وكان الوقت صيفًا استلقى على فراشه جاعلًا إحدى رجليه على أختها وكانت الشبابيك مفتوحة فلما ارتاح قليلًا مال بنظره فرأى القبجي الذي حضر إليه من الدولة بتقرير الولاية ينظر إليه من غرفته مقابل الشبابيك فنظر إليه ظاهر وعرف ما كانت تحدثه به نفسه حينئذ. فدعى بأحد رجال حاشيته الذين يحسنون التكلم باللغة التركية وقال له: اذهب فقل لحضرة الأغا: أني لست كما تحدثه نفسه قد أخذني الكبر والعجب لسبب انتصاري على عثمان باشا والدروز حتى جلست هكذا رافعا رجلي الواحدة فوق الأخرى لا والله وتربة سعد بل سبب ذلك التعب من الركوب وألم داء البواسير وصار لي اثنا عشر ساعة ما تركت ظهر جوادي فرفعت رجلي الواحدة على الأخرى لكي ارتاح من الوجع قليلًا. فلما مضى الرجل وكلم الأغا بذلك تعجب الأغا وقال أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له فكيف يعرف هذا الشيخ أحاديث النفس والضمائر.

وكان غير شره في الأكل والشرب، يفطر في الخامسة بعد نصف الليل ولا يأكل غير الدجاج ومرقة الفراخ صباحا وكان شربه الماء الصرف الخالص إلا أنه كان في بعض الأوقات يمزجه بقليل من السكر.

---

(١) الشنك كلمة تركية [illegible] المدافع لإظهار الفرح والزينة.

وكان فارسًا شجاعًا لا يهاب الموت شديد البأس لين الكلام جرش الصوت فصيح النطق ويحب الشعر والشعراء وكان يقرأ إلا أنه لم يكن يحسن الكتابة وكان مجلسه وقورًا جليلًا لا يجري فيه شيء من المجحون وذكر النساء وقد تزوج من النساء بستة وكلهن له منهن أولاد إلا نفيسة الشريفة وهي الأولى ماتت عن غير ولد وتمتع بجاريتين الأولى جركسية توفت بحياته والثانية كرجية التي قتل أمامها كما ذكرنا.

وكان مذكارًا إذ لم يلد له من الأولاد غير الذكور وله سبعة أولاد صليبي وهو البكر قتل مع علي بك ثم عثمان العاق وأحمد وعلي وسعيد وصالح وهو الأعور وسعد الدين وعباس وهو الأخير وكان علي أشبه في الصورة والأخلاق بأبيه وهو الذي كان يرشحه للأمر بعهده وعباس أيضا يشبهه بالصورة ولم يزل اليوم حيا يرزق في الناصرة وقد قابل بونابرتي فخلع عليه ووعده بأن يرتبه مكان والده.

وكان جميع أولاده فصحاء شعراء وقد جمع لهم مخائيل عبود البحري الحمصي قصائدهم وقصائد مؤدبهم الشيخ حليم الشويكي في ديوان. ولكل منهم قصائد طنانة يمدحون في هذه المواقع أباهم الظاهر والأدباء في بلادهم يحفظون أشعارهم لغرابتها ورقة معانيها.

وعاش ظاهر نحو ست وثمانين سنة لأن ولادته كانت كما نوهنا في أول كتابنا سنة ١٦٨٩[1] وقتل سنة ١٧٧٥.

---

(١) وقع غلط في الحاشية في صفحة ١٧ وفيها ١٦٩٦ والصحيح ١٦٨٩ تتفق ... القرائن مع الزعم [illegible]

عاقبة الخيانة

ولما وصل الدنكزلي برأس ظاهر أمام حسن باشا وكان ملطخًا بالدم والتراب أمر به فغسل وجعل على كرسي أمامه فظهر على وجهه أمارات الغم والحزن وجعل يفكر في نفسه وكان رأسه مطرقًا بالأرض مقدار ربع ساعة يلعب بلحيته والدنكزلي واقف أمامه مع الترجمان لا يجسر أن يتكلم.

ثم رفع حسن باشا رأسه قليلًا والتفت إلى الدنكزلي وقال له من أي بلاد من المغرب أنت؟

قال له من تاهرت.

فقال له وما كانت صنعتك هناك.

قال له: كنت حطابًا بفاسي.

قال له حسن باشا: وكم سنة صار لك في خدمة ظاهر.

أجابه ما يزيد عن أربعين سنة.

قال له الباشا كم كان دخلك منه.

اجاب الدنكزلي كان دخلي في أول سني خدمتي عنده قليلا لكن لم يكن يقل عن مائتي كيس لي ولأتباعي.

فقال له حسن باشا: تأكل خبز إنسان أربعين سنة ودخلك منه هذا المقدار

وتخضب سيفك بدمه. لينتقم الله مني إذا كنت لا انتقم منك لظاهر ثم أمر من كان في حضرته من ملازميه فأخذوا الدنكزلي فخنقوه ورموه في البحر فكان هذا أيسر جزاء خيانته لمولاه.

أولاد ظاهر بعد موت والدهم

ولما عاد حسن باشا إلى إسلامبول برأس ظاهر وأمواله وإبراهيم الصباغ وأمواله ترك أولاد ظاهر وشأنهم في قلاعهم محصنين أعزاء فيها ولهذا اضطر أحمد الجزار أن يدعهم وشأنهم في أول الأمر وهو يترقب الأحوال والأسباب للإيقاع بهم وكان عثمان الأكبر فيهم لقرب مركزه في شفاعمر إلى عكا في قلعة شادها فيها[1] يعد نفسه وارث الأمر في جميع بلاد صفد بعد والده لكن كان ينازعه على هذا أخوه علي الذي كان ظاهر يرشحه لذلك وإن كان أصغر من أخويه عثمان وأحمد إذ كان محببًا إلى الجميع لكرمه وبأسه وشجاعته ومروءته وعقله وحزمه.

ولما رجع حسن باشا إلى عكا سنة ١٧٦ ليعيد البلاد إلى طاعة السلطان ويمهد أمورها عزم عثمان الظاهر أن يتقرب إليه ليجعله مكان والده شيخ مشايخ بلاد صفد ثم كتب إلى إخوته ليحضروا معه إلى عكا ويسلموا زمام أمرهم إلى حسن باشا

---

(١) صارت اليوم هذه القلعة إلى الخراب وقد جعلها الأتراك سرايا الحكومة وكان يقيم مدير الناحية فيها وفوق بابها هذا التاريخ من نظم صاحبها

قف على دار بها الحسـ   م   ـنى تجلت بالزياده
شادها عثمان ذو الإحسا   م   ن من أعطي السياده
داره البدر بها الليـ   م   ـث استوى والعود عاده
فانظر التاريخ سهلًا   هذه دار السعاده

سنة ١١٨٢

ليختار منهم واحدًا في مكان ظاهر وقصده بذلك أن يتقرب إلى حسن باشا ليوقع بإخوته حتى يخلو له الجو وينفرد بالحكم بالبلاد وحده فانخدع بهذا إخوته وحضروا إلى عكا معه إلا علي مع كونه المقصود قبل الجميع؛ فإنه أبى الحضور وعول على الحصار في قلعته في دير حنا إلى أن يموت فيها أو أن يفرج الله عليه هذه الحال.

ولما قابل عثمان وأخوته حسن باشا في عكا أمر بإنزالهم إلى المراكب وأخذهم إلى إسلامبول ووسع عليهم إلا عثمان فأحضره أمامه وقال له بلغني أنك شاعر فقيه علامة فأعجبني هذا منك لكن أكره العقوق والخيانة في المؤمن وأنت مع علمك ما تعديتهما ثم أمر به فحبس مضيقًا عليه إلى أن قدّم له القصيدة اللامية يستعطفه بها ويريه أن خروجه على والده ما كان عقوقًا وإنما كان حبًّا وطاعة لولي أمر المسلمين الذي هو السلطان وأذكر من هذه القصيدة هذه الأبيات وقد وقفت عليها في مجموعة بخط يد أستاذي في النحو مخائيل البحري الحمصي في دير مار يوسف في الغرب (لبنان) وهي:

يا وزير الحق يا سيف الهدى ... أنت قسطٌ لم يرجحه محال
من يكن والي عصاةٍ خارجٌ ... وأبي ضل فهل أقفو الضلال
فرض الله علينا طاعة ... لولي أمرنا في كل حال
إن رأيتُ ابني شق العصا ... حل حقًّا إن أذيقنه النكال
لا تشمت بي عداتي بعدما ... نلت حملًا ضاق عنه الاحتمال
بهوى السلطان أرديت أبي ... جالبًا فيه على أهلي الوبال

وعند ذلك رفع عنه التضييق وجعله مع أخوته وأخذهم كلهم معه إلى إسلامبول وهناك ساعد الحظ عثمان حتى صار وزيرًا من قبل السلطان على بورصة ثم انقطعت أخباره وأخبار أخوته الذين معه.

وأما علي فإن حسن باشا أرسل عليه تجريدة وحاصره مدة طويلة في دير حنا وضيق عليه حتى كاد يأخذه وكان علي إذا ضاق به الأمر ينزل من القلعة على جواده برجاله ويهجم على العسكر ويطردهم أو يذبح فيهم ويفعل أفعالًا لا تصدق ولما يأتي الليل يعود إلى القلعة بالغنيمة من أسلابهم وكان قد نفر قلبه من المغاربة لخيانتهم وقد قل الزاد عنده والذخيرة ولم يكن عنده مدافع ولا طبجية فأخلى لذلك دير حنا وانتقل إلى صفد فتبعه حسن باشا بعسكره وحاصره في قلعتها.

ولما طال الأمر عليه بهذه الحال ورأى أن أصحابه من أهل البلاد قد تراخت عزائمهم عن القيام معه خوفًا من الدولة حمل أمتعته على جماله وركب بولديه الحسين والحسن وأهل بيته وخاصة رجاله وأخذ يتنقل مثل العربان أصحاب الخيام في الجليل وفلسطين حتى أعيي بهذا حسن باشا فتركه وشأنه. ولسبب هذا التنقل والخوف من الدولة تركه أصحابه وأهملوه وكان الجزار أرسل إلى جميع البلاد يعلن لهم بأنه خارج عن طاعة السلطان ومتمرد عليه فالبلد الذي تقبله يكون قصاصها الحريق والشيخ الذي يساعده يقع عليه سيف الانتقام السلطاني فخاف أصحابه ذلك وأهملوه.

وكان إذا أرسل الجزار تجريدة عليه يهجم عليها ويذبح فيها أصحابها ويغنم ما يكون معهم ثم يفر إلى مكان آخر لا يعرفه الجزار ولا أعوانه حتى بلغ بلاد الشام وحط في نواحي جسر بنات يعقوب فأرسل الجزار إلى وزير الشام محمد باشا العظم يخبره بأمر الدولة الصادر بقطع رأس علي عدو الدولة والسلطان وأنه مقيم في إيالته وحثه على القبض عليه والإيقاع به حتى لا يكون مساعدًا له بالخروج على الدولة.

وكان عند محمد باشا أغا اسمه إبراهيم أظن من الططر[1] ومعه من بني قومه خمسمائة خيال فكلمه الباشا في هذا ووعده بكل إكرام إن قتل عليًا أو قبض عليه وهو يحسب ألف حساب لمكايد الجزار.

فأجابه إبراهيم أظن إلى مطلوبه وقال له أظهر غدًا على عيون الملأ أنك طردتني وقطعت خرجي وأنا أمضي إلى علي وأعرض عليه الخدمة برجالي ومتى تم لي هذا هان علي قتله فسر بذلك محمد باشا وثاني يوم دعا إليه إبراهيم أظن وما كان منه إلا أن شتمه وطرده من حضرته أمام الناس حتى خرج من دمشق بأتباعه وأرسل رسولًا إلى علي يخبره بأمر خروجه من خدمة محمد باشا وأنه يريد أن يتشرف بخدمته هو ورجاله وإذا كان يقبلهم في الخدمة يلتمسون منه أن يتكرم بإرسال مصروف لهم. فلما وصل إلى علي الكتاب وهو على جسر بنات يعقوب قال في نفسه إن المغاربة خونة لا ذمة لهم وأهل البلاد تركوني خوفًا من الدولة وهؤلاء لا نعرفهم بخيانة ولعلهم يكونون لنا نعمة أرسلها لنا الله ويكون لنا الفرج على يدهم وأرسل الجواب بالإيجاب وأرسل معه مصروفًا خمسين كيسًا فلما استولى إبراهيم أظن ذلك قام بأصحابه وأتى إلى هناك وكان وصوله عند الفجر فوجد عليًا وفرسانه نيامًا لسبب تعبهم من تنقلهم بأسفارهم فاستلوا سيوفهم وهجموا على علي وهو في خيمته فاستيقظ من ذلك وصاح بهم هذه خيانة يا كلاب وقام ليأخذ سيفه فعالجه إبراهيم أظن بالسيف على ذراعه فأسقطها ومد علي يده واستلم عامود الخيمة واخذ يحامي عن نفسه بين القوم والدم يسيل من ذراعه فقطع إبراهيم أظن حبال الخيمة وقد أعياه القبض عليه فوقعت عليه فلما نزف دمه وبرد جرحه وثبوا عليه وقطعوا رأسه وأخذوه إلى محمد باشا العظم مع ولديه الحسن والحسين وأرسلوهما مع الرأس إلى

(١) راجع تاريخ الأمير حيدر صفحة ٨٣١ وما يليها حيث ينسب هذه المكيدة إلى علي أغا القيصري أحد أغاوات الق

إسلامبول بعد خسمة أشهر من سفر حسن باشا.

وقد نبغ أولاد علي في إسلامبول مع أعمامهم لكن لم يصل إلينا تاريخهم وإن ذكر البعض منهم بما يوجب المديح لهم والثناء عليهم ومنهم الشيخ فاضل بن علي له قصيدة في التصوف نشرت في مجلة البصائر.

وأما أولاد ظاهر الذين بقوا في صفد فلم يعرف منهم إلا عباس فإنه أقام في الناصرة وسلالته فيها إلى اليوم وقد رشحه نابليون بونابرت لولاية عكا عندما حاصرها في عهد الجزار واتخذه عونًا له عليه فسبحان الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

رسالة عثمان باشا للأمير يوسف بالعفو عن الشيخ ظاهر

افتخار الأمراء الكرام. عين الأماجد ذوي الاحترام. جناب الأمير يوسف الشهابي دام موفقًا لما فيه السداد ورضا رب العباد

غب إهداء ما يليق من التحية والتسليم بمزيد الإعزاز والتكريم. والسؤال عن خاطركم السليم. ننهي إليكم أنه قد سبق في قضاء الله وقدره بهذه السنين الماضية كثير من الخلل والتشويش في الأقطار العربية والبقاع الشامية بسبب الظلم الحادث من بعض ولاة الأمور وظهور علي بك وفساده. فلما أراد الله رفع الفتن أمر به فكان. ولكن بقي آثار منه إلى هذه المدة لأن الحاجات مرهونة بالأوقات. فقلد جيدنا حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن حسم هذه الطائلة وحراسة الخاص والعام. فرأينا الشفقة على العباد من أسد السداد. واجتهدنا في حقن دماء المسلمين وصيانة الأعراض. وأعرضنا عن تلفيق أصحاب الفتن والأغراض. وقد انتهت الأمور إلى استكشاف ما في الصدور. والهم الله كلًا من ذوي العقول رشده. وطلب نجاحه وسعده. فمن أجل من طلب النجاح. وغرد طائر سعده بحي على الفلاح قدوة المشايخ الكرام وعين أعيان العقلاء الفخام صاحب المقام المعتبر أخونا الشيخ ظاهر العمر. وقد حرر إلى نادينا الدستوري وسأل الدعاء وتمسك بحبل العهود والوفاء. وأعلن الطاعة لحضرة مولانا السلطان ظل الله في أرضه. نصره العزيز الرحمن على شروط وعهود معلومة واستعطف أن ينعم عليه بإيالة صيدا على وجه الملكية. ويرسل البقايا عليه في إيالة صيدا خمسمائة ألف غرش عاجلًا. ويرسل كل سنة مائتين وخمسة وعشرين ألف غرش عن المال السلطاني ويؤدي خدمة حراسة

ولوازم المحمل الشريف كجاري المعتاد. فلما رأينا رجوعه عن العناد وإقباله على السداد. أنعمنا له بذلك على ما عندنا من التحقيق بكوننا مرسلين لنظام الأقطار العربية ومدرجين في دفتر اعتماد الدولة العلية. وإننا إذا أملنا من كرمها شيئًا لا يخيب الأمل ولا يضيع العمل. ولذلك قد أجبناه وأنعمنا عليه بما تمناه. وأشعنا في دمشق بنداء المنادي بين الخاص والعام. وعرضنا الأمر إلى الدولة العلية والأعتاب الملوكية بالتماس هذا الإنعام. والآن وردت أوامر العفو والقبول وإجابة المسئول فحررنا من نادينا الدستوري مراسيم إلى كل من بيده مقاطعة من الإيالة وابتدأنا بكم. لأنكم ترغبون في هذه الحالة إذ إن جناب أخينا الشيخ ظاهر في مقام والدكم وعلى الخصوص أنه من سبعين سنة موصوف بحماية البلاد وصيانة العباد؛ لأنهم وديعة الله الملك الرحمن لحضرة مولانا السلطان. وهم من الطرف الخاقاني وديعة ولاة الأحكام. فبوقوفكم على كتابنا هذا تتحققون نجاح القصد ونمو السعد. وتكونون على قدم الطاعة لولاة الأمور عملًا بقوله تعالى: {أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم}. واشتغلوا بمداومة الدعاء لحضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن. واعلموا واعتقدوا بما حررناه والحذر من خلاف ما رسمناه والسلام حرر في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٤م.

الفرمان السلطاني بالعفو وتوجيه إيالة صيدا إليه قدوة الأماجد والأعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره

نعرفك أنه بعد وصول أمرنا هذا فليكن معلوما أنك من قديم الزمان من المتنعمين بنعم الدولة العليا. وقد حقق صدق عبوديتك برهان الخدامات الصادقة. وكنت صاحب الشهرة والشأن. وبصدق النية وإخلاص الطوية يشار إليك بالبنان. وكنت تؤدي الأموال السلطانية قبل كل إنسان وما عرجت قط عن صدق الخدامة

وطرق الاستقامة إلا منذ أزمنة قريبة لحدوث بعض أسباب نفسانية أظهرت التردد والوحشة خمس سنوات. ولكن في هذا الوقت وصل إلى سدتنا الملكية عرض حال بواسطة الدستور المكرم والمشير المفخم الصدر الأعظم عليّ الهمم وزيرنا عثمان باشا أدام الله إجلاله وضاعف بالتأييد إقباله. وكان ما فهم من عرض حالك أنك إذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات غير المستحسنة وصرت منظورًا إليه بعين الرحمة تضع قلادة الطاعة في عنق العبودية فبناء على ظهور طاعتك وثبات عبوديتك واتباعًا لقوله تعالى {من عفا وأصلح فأجره على الله} واقتداء بقول الحديث النبوي من: **((أقال نادما أقاله الله يوم القيامة))** قد عفونا عن كل ما قد سلف منك وحبذا هذا؛ لأنه من الشم السلطانية والسجايا الملكية بشرط أن تسلك بعد الآن سلوك الطاعة والعبودية. ولا تنحرف عن منهج الاستقامة المرضية. ولو بأقل الأمور وأصغرها. ولا تصرف وجهك عن نظام حال الرعية وتحصيل الأموال السلطانية سابقًا ولاحقًا ومن كل الوجوه واصرف سعيك في تحصيل رضانا الكائن عنه النمو والسعادة. وعلى هذه الشروط المذكورة قد أجرينا قلم مضى ما مضى على صفائح ذنوبك إلى يومنا هذا وصفحنا عن كل ما صدر من رفاقك وأصحابك وتابعيك ولاحقيك وعشائرك وصاروا جميعهم مشمولين بالعفو السلطاني. فاشكروا نعمة الله إن كنتم تعبدون. وعدوا هذه الرحمة السلطانية من النعم العظيمة وقدموا شكرا إلى يوم القيامة. وإن دمت على طاعة الأحكام الجليلة السلطانية. قائما بالخدمة المرضية. مظهرًا حسن الصداقة وخلوص الطوية. فلا تشاهد من طرفنا السلطاني غير اللطف والعناية وكن أمين البال مطمئن الخاطر وأمرنا هذا اربطه على عضدك الأيمن ولإظهار انعطافنا إليك أرسلنا لك هذا الخط الهمايوني صحبة افتخار الأماجد الكرام قبجي باشي أحمد هاشم دام مجده وليكن معلومًا عند الجميع أن سلطنتنا المخلدة البنيان المشيدة الأركان قائمة على أساس الرحمة والرضوان. فإذا

صدر بحسب الضعف ذنب من أهل البيوت القديمة واتبعوه بالتوبة والإنابة. وتعلقوا بأذيال المغفرة. فالعفو عنهم من خصائص أجدادنا الكرام. ونحن اقتداءً بهم قد عفونا عن ذنوبك لكبر سنك وشيخوختك. وشفقة منا على الرعايا والبرايا. فعليك رأي الله وأمانه ورأي الرسول ورأينا السعيد فاحفظ همايوننا هذا عقد جوهر في عقنك واعتمد عليه والحذر ثم الحذر من الخلاف حرر في شهر ذي القعدة سنة ١١٨٨.

رسالة حسن باشا إلى الشيخ ظاهر

من بعد السلام طلبت أعلمك عن سبب حضوري والآن أعرفك كل شيء إيضاحا وهو حضوري بأوامر من الدولة العليا صانها رب البرية لكي أستلم منك ميري البلاد سبعة سنين المكسورة عندك. وبعده آخذ رأسك وأستلم البلاد. هذا هو سبب حضوري. ولكن لكوني أعرف جيدا زود حلم ورأفة الدولة العليا وشفقتها على رعاياها سيما على من يكون مطيع إلى أوامرها فلذلك إن شئت تدفع لي مال الميري المكسور عندك. وتسلمني مدينة عكا. وأنت تخرج إلى مواضعك القديمة. وأنا من رجوعي إلى الأستانة العليا أعرض عن طاعتك وقبولك للأوامر السلطانية ويخرج لك فرمان بالعفو تماما عن كل ما سلف منك وترجع إلى مدينتك كما كنت وبهذه الطريقة تكون صنت مالك وعرضك ورجالك وحفظ مقامك. ماذا وإلا أنا حاضر للمحاربة.

المراسلات القديمة

أشرنا في المقدمة إلى هذه المراسلات التي كتبها أصحابها للأب اثناسيوس دباس العكاوي الأصل مؤسس انطوش الرهبانية المخلصية في رومية ووكيلها لدى الكرسي الروماني عن عكا وما يليها سنة ١٧٧٥ وفيها كما يرى القارئ النجيب من التفاصيل الشائقة عن هذه الحوادث المهمة ما يوجب علينا نشرها هاهنا إتمامًا لما نتوخى من تحقيق الرواية التاريخية فهي رسائل أهلية كتبها أصحابها لأخيهم بإخلاص وصدق ولا غرض لهم بتحريرها سوى الخبر عن حقيقة الواقع ونحن ندرجها فيما يلي بحسب تاريخ تحريرها.

الرسالة الأولى من الأب جبرائيل دباس إلى أخيه الأب اثناسيوس عن عكاس في ٦ نيسان سنة ١٧٧٥

...فهمنا من الرئيس العام أن مرادكم تحضروا عندما يسمح الوقت بذلك فنعلمكم بل نشور عليكم بأن تبقوا في محلكم؛ لأن بلادنا مخربطة من كون أبو الذهب حاكم مصر راكب على غزة والرملة ويافا بحجة أنها ملكانته والشيخ ظاهر مالكها منذ سنين بالسيف والآن محاصر يافا وموجود فيها الشيخ كريم الأيوب ويوسف بن إبراهيم الصباغ وأناس كثيرين من بلادنا وإن شاء الله يكونون منتصرين ولا نعلم بعده ماذا يكون.

ثم ما خفاكم الغيظ الذي حصل للسلطان العثماني على ظاهر لكونه جلب المسكوب لهذه البلاد واتفق معهم على محاربة العسملي وعلى ذبحه عثمان باشا الشام وملكه صيدا، وبنعمة خصوصية ورحمة من الله لأجل حسنة هذه البلاد بعث

السلطان قبجي إلى الشيخ ظاهر ومعه فرمان العفو والغفران على ما صدر منه ومن أتباعه من المتاولة والدروز بحيث يحط ميرة خمس سنين التي أكلمها سابقًا وكل سنة يحط الميرة المعتادة في المستقبل.

الرسالة الثانية من الخوزي افتيميوس زكار رئيس الرهبانية المخلصية العام للمذكور عن دير المخلص في ٦ أيار سنة ١٧٧٥

... ومن أخبارنا حضر أبو الذهب بعسكر سلطاني ما ينيف عن ستين ألفا التي منها عشرون ألفا حربية والباقي أتباع ومنهم خمسة سناجق ومعه جبخانة سلطانية وأخذ غزة والرملة وكان أخذهما سابقًا ظاهر مع علي بك. والآن له مقدار أربعين يومًا محاصر يافا التي داخلها كريم الأيوب حاكم ويوسف ابن إبراهيم ضابط إدارتها وعندهم ناس من اراخنة نابلس وأبو الذهب صار لتاريخه هاجم على البلد أربع أو خمس مرات وما استفاد شيئًا بل راح منه جملة ناس وكان قبلًا ضرب السور بالمدافع وهدم منه جانبًا وما استفاد شيئًا لكون البلد لها خندق عدا السور وما عمال يأتي بحركة. وكلة أحد مدافعه أرسلوها من يافا إلى عكا حجر وزنوها ستة وثلاثين رطلا شامي.

وقبل تاريخه أرسل علي الظاهر عشرة أحصنة خيل تقدمة لـ(أبو الذهب) معها مكاتبة لطيفة فقبلها وأعطى بخاشيش لآخذيها له وأرسل طلب عليًا إليه لكي يواجه فما رضي علي وإنما أرسل ولده الحسين الأكبر وصحبته خمسة أحصنة وثلاثة رءوس خيل أصائل من ظاهر فقبلهم وخلع على حسين وأرسل إلى أبيه خلعة مكلفة وأعطى بخاشيش لرفاقه وطلب بعض شروط سرية ما أحد عرفها سوى

ظاهر وإبراهيم الصباغ وعلي. والبائن ما ارتضوا بها ورجع حسين على هذه الصفة ولا نعلم ماذا يجد. وظاهر وأتباعه وصلوا إلى أواخر مرج ابن عامر ورجعوا والآن ما زال أبو الذهب على يافا وظاهر وأتباعه محتارين كيف يعملوا والدروز ما سعفوه وبعدنا على هذه الحال التي نرجو الرب أن يصلحها بدعاكم. ومن جهة الأسعار بهذه البلاد كل شي غالي والغلة الجديدة القادمة الباين أنها خسيسة والذي عنده شيء متمسك به وسعر الحنطة مدين بقرش والشعير الكيل بقرش والحمص والفول والعدس والكرسنة وباقي الحبوب مدين بقرش والسمن بالمرافع وصل الرطل إلى أربعة والآن في موسمه يكلف قرشين ونصف الرطل وازود وهذا من موت الطرش في كل مطرح والذي كان عنده ألف ما فضل منها العشر وأيضا الربيع قليل والزيت الرطل بقرش ونصف واللحم بالمرافع النانط (الضعيف) وصل للقرش ونصف والقرشي ما حضر وقيس على ذلك باقي الأشيا ما فيها رخيص نسأله تعالى أن يلطف بعباده ويرحم الفقراء والمساكين والأرامل والأطفال والرهبان.

الرسالة الثالثة من الأب جبرائيل دباس لأخيه المذكور عن عكا ٢٢ حزيران شرقي سنة ١٧٧٥

إني كتبت لكم أن السلطان بعث قبجي إلى الشيخ ظاهر وأرسل له معه فرمان العفو والغفران على كل شيء صدر منه سابقًا برفقته (موالاته) للمسكوب ومجيئهم إلى هذه البلاد وأخذ بلاد السلطان مثل صيدا وغزة والرملة ويافا.

ثم بعث محمد أبو الذهب حاكم مصر يطلب من ظاهر ملكانته وهي غزة والرملة فأنكرها عليه الشيخ فالتزم أبو الذهب يخرج من مصر بجباخانه وعسكر عظيم على بلادنا ولما وصل إلى غزة والرملة سلموا حالًا وتقدم إلى يافا فحصرها

خمسين يومًا وملكها بقوة الجباخانه وخيانة المغاربة الذين كانوا عند الشيخ كريم الأيوب في يافا فلما ملكها أعطى أول يوم الأمان وثاني يوم مسك كل المسلمين والنصارى من المفتي والقاضي ونازل وجميعهم قتلهم ومنهم أولاد فينان وكريم الأيوب وحبس عنده كاتبه يوسف الصباغ بن إبراهيم فمن بعد ذلك لما أراد أن يتوجه لنواحي عكا لما نظرنا القساوة التي أظهرها مع أهل يافا قمنا على الشيخ ظاهر كلنا مسلمين ونصارى ويهود لكي يسمح لنا بالخروج من البلد فقاومنا بالأول ولكن لما استحقها (وجدها حقًا) من كون لا يوجد عنده ذخيرة بالبلد حتى تحاصر وعيبته ابنه علي فأمر الناس كلها تخرج من عكا فخرجت وهو معهم مسلمين ونصارى ويهود وأناس ذهبوا إلى الجبل وإلى سحماتا وطرشيحا وأناس إلى بيروت وأناس إلى دير المخلص وأخوتكم طلعوا كلهم ماشين إلى سحماتا من قلة الدواب وتركت الناس حوائجها ما عدا الرزق كان موضوعا في خان الإفرنج خوفا على حياتها وعرضها.

ولكن الله تعالى أراد لأجل حسنة المساكين الذين تشنططوا وقصاصًا لقساوة هذا العدو للكنيسة رفع الغضب عنا بسماحه بأن يموت موتة شريرة وهو على أبواب عكا وأيضا لأنه أمر في خراب دير مار الياس في الكرمل وكانت نيته يخرب الكنائس التي في عكا[1] وكان يبعث يجيب بحيل النصارى بأوراق أمان كاذبة ويبلصهم بدارهم فوق قوتهم أخيرا أرسل له الله حمى شديدة أخذته في مدة سبعة أيام إلى القبر الجهنمي فحالا عسكره ارتفع عن عكا وتوجه إلى مصر وقتلوا وهم رايحين الشيخ كريم في الرملة، لأنه كان مجروح وهو نائم طريح الفراش في الرملة ومن بعد قيام

(١) لا يرى فولنيه الكافر في هذا عجبًا ولا آية من آيات الله وعنايته في خلقه ويجعل سببًا لمرض أبي الذهب العفونة التي تتولد بجوار عكا من تحول مجرى المياه لكن أبا الذهب قد مرض بالحمى حال

العسكر من عكا رجع الشيخ ظاهر إليها وبدأت الناس ترجع إلى بيوتها لكي تعمرها؛ لأنها خربانة ومنهوبة حتى أن الكنائس انتهبت وما بقي فيها شي والآن ما راقت عكا كما يجب ولكن إن شاء الله بدعاكم الصالح تروق وتعمر هذا ما لزم وما نعلم ماذا يجد من اسطنبول لأن أرسلوا أخبروا عن هذه الأمور التي وقعت.

الرسالة الرابعة من الأب يوسف بابيلا في أول تموز سنة ١٧٧٥ عن دير المخلص لاثناسيوس دباس

وبهذا النهار عينه الذي وصل لنا فيه مكتوبكم ثاني يوم العنصرة المتفق في أول حزيران من هذه السنة وصل لنا من طرف عكا الأعلام بموتة أبو الذهب حاكم مصر الذي بعد أن ركب على ظاهر العمر ركبة سلطانية بستين ألف واستولى على يافا وغزة والرملة وحيفا وعكا وألقى الرعبة في قلوب حكام هذه البلدان جميعها وكان أمر في نهار الثلثا الذي قبل العنصرة بهدم كنيسة مار إلياس الكرمل وان تكن بنيت بفرمان سلطاني إلا أنه يا للعجب كل العجب حالما تلفظ بهذا الأمر راسلا جملة أناس في تتميمه وما هاب من شيبة هذا البطل فلوقته وإن كان صحيح المزاج في الغاية اشتكى من وجع رأسه الذي لم يفارقه حتى أخذ روحه نهار السبت المتقدم على أحد العنصرة ولبث مريضا ثلاثة أيام لا غير وكان فيها يطلب من المماليك القائمين بخدمته أن يبعدوا عنه الاختيار المضايق له إلا أنهم كانوا يقولون له أفندم أمركم مطاع إلا أنه لا يوجد اختيار هنا ولهذا السبب قد تحقق عند الجمهور أن القديس مار إلياس قد غار على معبده.

الرسالة الخامسة من الاب جبرائيل الدباس لأخيه اثناسيوس عن دير المخلص في ٥ ت ١ سنة ١٧٧٥

أخبرتكم قبلًا عن حضور أبو الذهب لبلادنا وأخذه يافا وقتله أهلها النصارى وبعض المسلمين وحضوره إلى عكا وأخذها وطلوع الشيخ ظاهر منها قبل حضوره إليها مع طلوع الناس كلها من عكا وأخيرا موتة المذكور ورجوع الشيخ إلى عكا إن شاء الله يكون وصل ثم من بعد مدة شهر أرسلت مكاتيب غيرها وخبرتكم عن حضور المراكب السعملي لبيروت وأخذت حيفا وبسبب خيانة المغاربة التي سلمت البرج والقلعة. إن شاء الله وصلوا.

ثم الآن أخبركم أن بعد أخذ حيفا من المراكب المذكورين بعث القبطان باشا وراء أحمد أغا الدنكزلي الذي كان يومها بعكا وتواجه معه في حيفا ولكن ما انعرف على أي شي كانت مواجهتهم ثم أرسل يطلب من ظاهر تسليم البلاد فأجابه ظاهر يعطيه فرمان في تسليم البلد حتى يسلمها فالقبطان باشا رد له جواب أن ما معه فرمان فأجاب ظاهر ولا أنا أسلم البلد وأعتمد على تحصينها وسمح للناس بعد تعب كلي وبلص كلي أن تخرج وأرسل طلب ناسًا وأتى من البر فلاحون نحو ألف بارودة وحصن عكا قوي مليح وكان سابقا الشيخ دشر المغاربة التي كانت في عكا من بعد خيانتهم في يافا وحيفا فصعب جدًا على الدنكزلي منه ترك المغاربة أتباعه فقصد يخون ظاهر بعد هذا المقدار من الخدمة بأمانة عند المذكور وأيضا نكاية في إبراهيم الصباغ.

ثم تقدمت المراكب نحو عكا وربطوا قرب البلد وبدأ من ذلك الوقت الدنكزلي

يفسد الطبجية التي كانت قبلًا عند أبو الذهب وهم ثمانية والفلاحون الذين كانوا في البلد والفداوية التي عند ظاهر حتى أنهم قاموا على ظاهر بتسليم البلد قائلين إنهم لا يحاربوا السلطان. فلما رأى الشيخ البلد كلها عائبة التزم يخرج مها وإذ خرج من البوابة قوصوه المغاربة الذين كان دشرهم وكانوا مختفين في البساتين ورابطينها مع الدنكزلي وأخذوا رأسه وسلموه ليد القبطان باشا. وأولاد ظاهر كانوا مجردين ومتوجهين حتى يلاقوا باشا الشام محمد الباشا ابن العظم القادم على عكا حتى يضربوه فلما سمعوا بموتة والدهم التزموا يرجعوا إلى قلعهم وفي هذه الحال استولى المراكب على البلد وفي دخلة العساكر قتلوا البعض من النصارى فقراء اختارية مقدار خسمة أو ستة وقتلوا البعض من المسلمين وفضحوا البعض من حريمهم كانوا مجتمعين في خان الإفرنج الجديد والقديم وما أتوا عملًا إلا في ذلك اليوم وكانت ضربة النصارى على الفقراء ثم بعد ذلك فتشوا على إبراهيم الصباغ والمذكور كان هرب قبل خروج الشيخ ظاهر بيومين لعند الشيخ قبلان شيخ المتاولي وأولاده كانوا طلعوا مع عيالهم إلى جبل لبنان والبعض احتموا في الديورة والبعض احتموا عند الشيخ علي جنبلاط ثم إن إبراهيم نزل إلى عكا بحماية الشيخ قبلان المذكور مع بيوردي من باشا الشام الذي كان حضر إلى عكا حتى ينظم الأمور فلما سمع قبطان باشا بحضوره أرسل حالا أتى به لعنده وعذّره وضربه كم عصاية لكي يقر على ماله ومال ظاهر فالتزم المذكور أن يقر عن كل شيء ويسلمهم الذي كان مودوعًا في عكا عند الإفرنج والذي كان مودوعًا عند الإفرنج في صيدا وحضر هو برأسه بغلياطه إلى صيدا حتى سلموها له وفكشوا يديه بعذابهم له وأخذوه معهم إلى استنبول وما نعلم كيف يصير فيه الله يحسن خلاصه.

ولكن قبلما تتوجه المراكب من عكا فتحوا حواصل خان الإفرنج والأوض التي كان فيها مودعًا رزق إلى أولاد العرب أعني أهل البلد فأخذوا كل شيء فيها وما

خلوا سوى النحاس والفرش المقطعة وباقي الرزق مثل حرير وقماش وجوخ ودراهم وثياب مليحة وصيغة كله نهبوه وبعده نهبوا الدور ما خلوا فيها شيئًا وهذه غير نهبة أبو الذهب التي صارت قبلا حتى جرم المسامير وجرن الكبة أخذوه معهم الغاية خلوا أولاد عكا شحاذين ينوحوا على تعاستهم إلى الأبد. وكل هذا من سماح الله لكثرة الظلم.

ومن يم الكنيسة اعلم أبوتكم والدموع نازلة بأنهم هدوا الهياكل والواجهة وأخذوا البلاط معهم وقلعوا الابواب وكل الخشب التي فيها حتى جرم المسامير أخذوها وما أبقوا إلا الحيطان كذلك فعلوا في أرض الكنيسة هدموا سقوفتها وأخذوا خشبها ومن يم النصارى كلهم هربوا أناس لجبل لبنان وأناس لجبل بلاد صفد وإخوتكم بعيالهم جميعا طلعوا اخرجوا شيئا من أرزاقهم لكن قليل لكونه ما كانوا يسمحون لأحد يخرج معه رزق إلا بالسرقة فلأجل ذلك جميع الأرزاق وضعوها في خان الإفرنج ظانين أنها تكون بأمان ولكن صار الأمر بخلاف الأمل. وهكذا أراد الرب.

ومن يم حوايجي انتهبوا أيضًا لاني كنت وضعتهم في حاصل أخوكم روفائيل في الخان وإنما سلم لي الكتب فقط لأني كنت أودعهم عند ريس البادرية في الدير ولم يكونوا يقبلوا صناديق وشكرت الله على ذلك.

ومن جهة حالنا الحاضرة أخبركم أنه بعدما توجهت المراكب من عكا مع باشا الشام وباشا صيدا إذ دخل إلى عكا باشا بتوخين اسمه أحمد الجزار[1] ونبه أمان

(١) التوخين مثنى توخ ويقال له توغ وهو شعر أبيض من ذيل الفرس كان يربط برأس السنجق عند

واطمئنان على الرعية أنها تنزل وتعمر بيوتها وتفتح حواصلها وإلا تنهب الباقي في حواصل الخان فالتزم أكثرهم أن ينزلوا حتى ينظروا أن كان يمكن يحصلوا شيئًا من أرزاقهم ونزل أيضًا أخوتكم بغير عيالهم والأعمال التي عمال يعملها مع النصارى الباشا المذكور علاماتها مليحة وسلوكه تقوي الآن مليح معهم غير أنه ما نعلم آخر ذلك... ثم نبه على النصارى أن يلفوا كشامير كعادتهم في أيام ظاهر ويسلكوا نظير السابق ولكن ما نعرف أن كان يدوم حال هذا الحاكم.

ثم المسلمين طلبوا من الجزار أن يهد الكنيسة والمقبرة من كونها بلا فرمان فرد الجواب لهم فرمانها ألف قرش ميرة معتادة. ثم بعده النصارى طلبوا منه أن يرمموها (لكونها صارت خرابًا) فطلب منهم ألف ذهب لكي يجيب لهم فرمان من استنبول عدا الميرة التي عن كل سنة فتكلموا النصارى مع الخواجا دوران فرنساوي لكي يرهنوا حوايج الكنيسة الباقية مثل قناديل الفضة لأنها انتهت في زمان أبو الذهب ولما حضرت المراكب إلى مدة كم شهر لكي يلموا لأن ما معهم مائة ذهب فضلا عن الألف فقبل الخواجا دوران الذي الرب يديم بقاه ويعطيه خلاص نفسه لأنه عامل جهده في حماية النصارى ومحبوب عند الباشا وكلمته نافذة حتى إنه سلم له البلد فلأجل ذلك النصارى ما لهم ملجأ بعد الله سوى الخواجا دوران دون باقي الإفرنج ولكن إلى الآن ما تم الأمر وإنما صار حكي فقط حتى ننظر ماذا يصير بعد [1].

باشا الجزار لما دخل عكا لم يكن قد أنعم عليه برتبة الوزارة بل أنعم عليه بها بعد أن مهد البلاد وقتل علي الظاهر ومشايخ المتاولة إلخ

(١) الخواجا دوران (Durant) أكبر تجار الفرنساويين في عكا كان له كرامة عند الجزار في أول الأمر لأنه كان يحتاج إليه ويستدين منه ما يلزم لمصروفه ولمرتبات عساكره وكان الجزار قبل أن يتولى قبالة صيدا وعكا من كبار المفاليس ولكن لما استغنى بعد ذلك بمال الظلم طرد دوران المذكور مع جميع

ومن يمي أنا الآن مقيم في دير المخلص حتى أنظر كيف يريد الله يدبرني ثم أيضًا صهركم وشقيقتكم وعيالهم في الدير المذكور إلى أن تروق الأمور أحسن ثم إن الناس خائفين وحاسبين ألف حساب للصيفية الداخلة من حضور المراكب ثاني مرة إلى البلاد ولأن أولاد ظاهر إلى الآن قوايا ومحصنين حالهم وما قاسوا شيئا من الضيق أبدا ولا ضمنوا من الباشا البلاد والأمير يوسف ضمن بلاد الدروز وكذلك مشايخ بلاد المتاولة ما عدا مشايخ بلاد صفد فلأجل ذلك أهل البلاد خائفين.

ومن يم المراكب التي توجهت من بلادنا فإنها سارت إلى استنبول بطلب من الدولة وما نعلم السبب وأولاد ظاهر مفتونين في بعضهم والغاية حال بلادنا تفتت القلب وهذا كان بسماح الله وقصاص كثرة الظلم الذي صار في هذه البلاد والصالحين راحوا بجراير الطالحين وفهمكم كفاية.

هذا ما لزم إعراضه وأن جد شي غيره نخبركم عنه وأرجوكم أن تعرضوا مكتوبي هذا لحضرة القس أغابيوس مطر وحضرة الاب ديونيسيوس حجار وكافة المحبين لان لا يمكنني أن أكتب لكل واحد مكتوب ونوبواعني بقبلة أيديهم.

الرسالة السادسة من الاب العام افتيميوس زكار عن دير المخلص
في ٣٠ ك ١ سنة ١٧٧٥ لاثناسيوس دباس

سابقا أخبرناكم عن حضور أبو الذهب وأخذه يافا وعكا وعن الظلم الذي وقع

من الأمير يوسف شهاب وسعد الخوري وابنه غندور ومخائيل السكروج ومخائيل البحري مما لا

على أهالي تلك البلاد وعن موت أبو الذهب وبعده رجوع ظاهر لعكا وحضور غلايين العثماني إلى عكا. والآن نخبركم بعد أن المراكب أخذوا كل شيء يخص ظاهر من كلي وجزئي والذي فوق الأرض وتحت الأرض وكما سمعنا المال الذي وجدوه فوق الأرض وتحتها عدا الأثاث ينيف عن ٨٧ سبعة وثمانين ألف كيس وأناس يقولوا أكثر وأناس يقولوا أقل وتوجهوا المراكب وأخذوا إبراهيم الصباغ معهم إلى استنبول ولا نعلم كيف ينتهي أمره لأن الأخبار عنه مختلفة من يقولوا حطوه بين الأسرى ومنهم من يقولون أطلقوه ومنهم يقولون عذبوه وقتلوه الرب يخلصه.

وأما حرمته وأولاده وعيالهم كافة مجتمعين بجاه الأمير يوسف لكون لما أخذ المراكب عكا وقتل ظاهر ومسكوا إبراهيم صار على الأولاد تفتيش زائد وخبيناهم في دير السيدة ثم وجهناهم ليلا إلى رسميا وقد سعينا قدامهم سعيًا يطول شرحه وهذا لمجد الله بعد أن كانوا يطردون رهباننا من عكا وما كفى هذا والخسائر الدهك الذي صار علينا كثيرة لا توصف ونفد نحو ستة عشر كيس منا على أهالي عكا لمجيئهم إلى الدير الذي من عدم مطرح ولو كان قبو أو مكان الدواب ما خلينا مطرح حتى عزلناه ونظفناه وسكنا العيال بل روحنا كافة المبتدئة وأكثر الرهبان لغير دير وأبقينا عندنا القليل وسكنا العيال في ممشى المبتدئة والممشى التحتاني والأوض الجدد الغربيين كما يفهمكم الأب أغابيوس وفي الكنيسة والغاية بطل الدير والرهبنة وصار عندنا ثلاث مدن عكا وصور ويافا فأنتجوا من القليل كثير وطلع صيت علينا أن مال الصباغ ومال عكا وعيال إبراهيم عندنا وقبل موت أبو الذهب جانا علم بأن مراده كبسنا فرحلنا جميع ما عندنا من حوايج الكنيسة وغيرها ولما سمعنا بموته رجعت العجقة أكثر ما كانت إذ حضر الباشا إلى صيدا والمراكب إلى عكا وبلغنا أن الباشا بلغه ما بلغ أبو الذهب بان مال إبراهيم وعياله عندنا وبده يكبسنا فرحلنا ووزعنا ثانية فانظروا المشقات التي مهما شرحنا لكم عنها ما هي إلا نقطة...

أولاد إبراهيم وعيالهم ووالدتهم كافة في رشميا بالدير بها انه بعيد ومستتر ولا يتظاهروا أصلا والجميع ينتظرون الفرج وعكا حضر الجزار إليها باشا من قبل الدولة وطيب خاطر النصارى وأرسل لهم بلوردات ليرجعوا إلى مواضعهم بكل أمان ولا يخشوا بأسًا فنزلوا ناس قدام ناس وإنما الخوف بعد واقع على الجميع وما هم بأمان.

والباقي عندنا في الدير دار صهركم طنوس ودار حنا عبيد وأخوه يوسف ودار نعمة النحاس ووالدته فرسون أخت إبراهيم الصباغ والمسكينة بحالة يرثى لها على أخيها الله يخلصه ودار حنا زينة وحرمة المرحوم حنا القسيس وأيضا دار مخائيل وسليمان عكاوي.

ونخبركم أيضًا أن بحوادث عكا أولاد إبراهيم ودعوا جانب مال وغير أرزاق عند وكيل الرهبان الفرنسيسكان في عكا والمذكور وقع بكلام قدام الناس أن أولاد إبراهيم ودعوا عندي ودايع من مال وغيره فوشوا عليه للحكام الذين ضبطوا الجميع وأصبح أولاد إبراهيم صفرين من كل جهة مع أن الوكيل كان عنده ودايع لغيرهم وتوجه إلى قبرص وما تكلم عنها شيئًا فعلى هذا الوكيل ملتزم بالضرر جميعه فأولاد إبراهيم صاروا بحالة محزنة من كل وجه والحزن عليهم من الناس أكثر من حزنهم على نفوسهم لسبب ما حل بهم ومعتمدين يشارعوا الوكيل في أي شريعة أراد وطلبوا منا أن نخبركم مجروية هذا كي إذ حصل عندكم في رومية كلام بهذا الشأن تفهموا ماذا تردوا الجواب وإذا حكم فرصة قدام كستلي المقدام رئيس مجمع انتشار الإيمان خبروه بهذا الكولا لأن الأولاد كاتبوا المجمع.

الرسالة السابعة من الأب المذكور له عن غريفة في ١٩ أب سنة ١٧٧٦

... وسبب قلة المكاتيب منا لأبوتكم هو كثرة الحروب والفتن المتصلة في بلادنا من حين وفاة أبو الذهب وما انتهت. ويوم تاريخه نحن والمطارنة والآباء والإخوة والراهبات موزعين في دير المخلص ودير السيدة ودير الراهبات أولنا في غريفة وآخرنا في در رشميا والسبب أنه حضر في هذا العام في أوائل حزيران عشرة غلايين مع توابعها من غلياطات وغيرها وحضروا إلى عكا وكان قبلها بشهر زمان أحمد الجزار مجيش بمقدار خمسة آلاف عسكري خيالة وزلم كانوا طالبين رأس علي الظاهر في دير حنا فركبوا كلهم عليها بعد أن خربوا ساحل بلاد صفد ما عدا القرى الكبار نظير شفاعمر وغيرها. وبعد أن استقام عسكر الجزار وعسكر قبدان البحر مدة أيام على حصارها ومعهم عساكر المتاولة سلم دير حنا بالأمان وضبط العسملي المحل من غير أن يقتل أحدًا (لأن علي فر منها).

ثم انفرد العساكر المذكورة في البلاد وتملكوا قلعة صفد وطبرية وكل بلاد صفد ساحل وجبل وعلي الظاهر فر هاربًا بعياله وماله ووصل إلى حدود جبل الريحان ولم يكن أحد يقبله لا من المتاولة ولا من الدروز والعربان.

وفي هذه المدة والتي قبلها كان أولاد ظاهر مسلمين للدولة بخلاف أخيهم علي بل كانوا يحاربونه ويقصدون أن يمسكوه ويأخذوا رأسه والبائن أن الله ما له إرادة بذلك لأمر يعرفه هو.

وبعد أخذ دير حنا بمدة أيام وقع القبض من حسن باشا قبدان ومن أحمد باشا

الجزار على عثمان الظاهر وأخوته أحمد وسعيد وفاضل ابن علي -وهذا سلموه أهل طبرية- وصالح الظاهر وعبد العزيز ابن عثمان ويوسف دبور كيخة علي الذي سلم دير حنا والكل واضعينهم في الجنزير في حبس عكا وفيما بعد يرفعونهم إلى الغلايين قاصدين أخذهم إلى إسلامبول.

فلما نظر المتاولة هذه الأفعال من الدولة قالوا في نفوسهم ليس بعد مسك أولاد ظاهر إلا نحن وهكذا عدلوا عن مساعدة الدولة وساروا إلى بلادهم وجيشوا بعساكرهم واستعدوا لملاطشة الدولة إن هي قارشتهم فالدولة فاتت على بلادهم (مرت) إلى جسر الأولي (نهر صيدا) وما كلمت أحدًا من المتاولة وجعلوا وطاق العسكر على الجسر والقبدان والجزار حضرا إلى صيدا وغلايينهم منها في صيدا ومنها على مينا بيروت واستعدوا لركبة الجبل واستغاثوا لذلك وما أجابوهم؛ لأنهم قالوا في بعضهم أن ساعدناهم على الدروز لا يبقى في السلم سوانا وبعد أن ينتهوا من الدروز يرجعوا علينا. ولأجل ذلك ما طابقوا معهم وعسكر الدولة وحده لا يقدر أن يقحم بلاد الدروز لكنه مع هذا عسكر الدولة ضربة شوية على المزارع في ساحل صيدا لأجل التبن والشعير ونهبوا قمح من بعض مواضع ومرات كانوا يوصلوا إلى حدود كرخا وأوقات لحدود جرن والجلالية وأصحاب هذه المواضع يردونهم.

وسعادة الأمير يوسف ومشايخ البلاد أرسلوا تقادم إلى حسن قبدان باشا بعد وصوله إلى صيدا مع مكاتيب وعمدة من قبلهم وطلبوا منه أن يعرفهم وإن كان معه مراسيم بحقهم ولأي سبب العسكر على الجسر والمراكب في بيروت. فقبل التقادم وأكرم المراسيل واعتذر للأمير أن العسكر على الجسر لأجل الماء والمراكب في بيروت لأجل الميري وليس معه أوامر على الجبل والدروز إلا بطلب الميري القديمة وقبضها

وأرسل أناس من قبله إلى عند الأمير فاطلعهم سعادته على الوصولات التي معه من الدولة وعملوا معه الحساب والباقي من المال القديم عمالين يجمعوه ويوردوه له أول بأول ومتى وصل له كله يعطيهم القبدان باشا وصول خلاص بالميري القديمة ولا يبقى على البلاد سوى الميري الجديدة عن هذه السنة والقول بعد إتمام إيراد الميري القديمة يعي وصولات الخلاص ويتوجه بمراكبه بالسلامة...

الأب سمعان عاقلة (المعروف بالصباغ انتماءً لإبراهيم الصباغ) في تاريخه عندنا ومعنا وقرينا عليه عبارتكم المختصة بإبراهيم وأهل عكا وهو يقبل أيديكم ويشكر فضلكم. وإبراهيم لم يزل في المدينة المتملكة ولا أحد يعرف كيف صار فيه هل هو بقيد الحياة أو تحت السيف أو بعذاب آخر الرب يفك أسره. ومتى اصطلحت الأحوال وارتفعت العساكر عن الجسر نرجع لمواضعنا في دير المخلص.

DOCUMENTS INÉDITS

POUR SERVIR
A
L'HISTOIRE DU PTRIARCAT
MELKITE D'ENTIOCHE

IV
HISTOIRE DU
SHEIKH DAHER EL-OMAR
EZ-ZEIDANI
GOUVERNEUR D'ACRE ET DU PAYS DE SAFAD
PAR
MICHEL NICOLAS SABBACH (D'ACRE)
PUBLIEE ET ANNOTÉF
PAR
LE PERE CONSTANTIN CAHHA
R B S

IMP DE ST. PAUL HARISSA (LIBAN)

RÉSUMÉ DE LA MONOGRAPHIE

Pour avoir une idée assez exacle du sujet de cette monograhpie, il faut se reporter prés de deux siécles en arriére, au temps où le Ture faisait peser plus que jamais sa lourde et par les Schiites du Pays de Béchara (entre Tyr et Sidon), et par les Druzes et les Chrétiens du Liban.

Le pays était alors divisé en Wilayets ou Sandjaks. Don't le gouverneur était du titre pompeux de Ministre. Il y avait un droit absolu et illimité sur les personnes et les choses.

Le theater des événements est le Sandjak ou Wilayet de Sidon. Ce département commencait alors à la baie de lounieh, au nord de Beyrouth, et tinissait à Caïfa, au pied du mont Carmel. Il ne comprenait que les villes de la côte et le pays dit de Safad. Aux environs du lac de Tibériade. Lmterieur était plutôt soumis au régune ancient de petits princes (emirs) ou scheikhs (anciens ou seigneurs) plus ou moins independents: régime qui rappelled de prés le systéme de la féodalité. Ainsi le Liban était sour la domination de petits scheikhs on emirs. Eux-mémes sumis au Gran Emir de la famille Schehab.

Un avaul-propos trés détaillé de l'éditeur nous met au courant de toute cette organization générale et jette ainsi beaucop de lumiere sur les événements.

Quant au héros de la monographie, le Scheikh Daher El-Omar Ez-zeidani, il fait précisément l objet de tout le récit.

Les premiéres pages nous renseignent sur l'origine de sa famille, sou établissement dans le desert de Tibériade d'abord puis au pays de Safad.

L'auteur nous présente ensuite le héros. Ses qualities, son marriage jusqu'à son premier exploit à Tibériade,vers 1733.

C'est alors que eommence cette série initerromnue de suceés qui va lni permettre de rélablir daus le pays lorde, la paix les bounes mœurs. Désormais il ira de triomphe en triomphe au point d'alamer le Gouvernement Ture. Tom à tour il étendra sa domination sur Nazareth, Caïfa. Naulouse, Jaffa, Gaza, Jérusalem, Hébron, au sud; sur Tyr, Sidon, une partied u Liban, au nord. Il essaiera par deux fois de s'emparer de Beyrouth. Il dirigera une campagne contre l'Egypte. Et son fils Ali, Général en chef, y périra victime d'une trahison.

En sommen, une période de prés d'un demi siécle de lutes glorieuses (1733-177$, ayant pour consequence la formation d'un petit Etat independent, au sein meme de l'Etat Turc, alors en pleine prospérité. L'empire turc le craindra, Catberne II de Russie et Josehph II d'Autriche solliciteront son amitié; et n'était l'échec de son fils Ali aux protes de l'Egypte, c'eût été, à bréve échéance, la foundation d'une petite dynastie indépendante.

Après sa mort, il se fera regretter partout, surlout lorsque pèsera lourdment sur le pays l'oppression du fameux El-Jazzar, le plus tyrannique des gouverneurs d'Acca.

La leclure de ces pages est captivante. Elles offrent l'mtèrèt d'un roman. Pourtant l'auteur est un historien bien informè; il a puisè aux sources les plus vèridiques et a connu les èvènements de ses proches parents, ou de ses professseurs, euxmêmes contemporains et de la suite du Scheikh Daher.

Pour terminèr, l'èditeur nous livre certains documents de la meme époque, propres à èclaircir ou à corroborer certains details de la Monographie.

فهرس